أول من بنى الكعبة

قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج]. ساعة أن تسمع كلمة ﴿وَإِذْ﴾ فافهم أنها ظرف زمان لحدث يأتي بعدها الخبر الذي حدث في ذلك.

فإذا قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ﴾ فإنه يخاطب رسوله قائلاً اذكر هذا الوقت الذي قيل فيه لإبراهيم هذا الكلام.

إذن.. فكل كلمة: ﴿وَإِذْ﴾ في القرآن الكريم معناها خطاب لرسول اللَّه ﷺ بحدث وقع في ذلك الوقت وكلمة: ﴿بَوَّأْنَا﴾ من المباءة ومعناها الرجوع يقول اللَّه تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، أي: رجعوا بغضب من اللَّه، والمكان المتبوأ: بقعة من الأرض يختارها الإنسان ليرجع إليها من متاعب حياته، ويجعلها مستقراً له يعود إليه بعد قضاء مصالحه وأثناء عمله.

فالمباءة هي المكان الذي يرجع الإنسان إليه من حركة حياته، ولا يرجع الإنسان إلى مكان يختاره من حركة حياته، إلا إذا كانت فيه كل مقومات الحياة، ولذلك يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف].

إذن.. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي جعلناه مباءة يرجع إليه من حركة حياته، وأعلمناه بمكان البيت، ونحن قلنا: إن المكان دائماً غير المكين. فالمكان هو البقعة التي تقع في المكين.

مسألة بناء البيت تكلم فيها العلماء كثيراً، وبعضهم ذهب إلى أن أول من بنى البيت هو إبراهيم عليه السلام[1]، ونحن نقول: إن معنى أن اللَّه بوأ لإبراهيم مكان البيت أي

---

(١) قال صاحب سبل الهدى والرشاد في عدد المرات التي بنيها البيت:
المرة الثالثة: عمارة أولاد آدم عليه السلام.
المرة الرابعة: عمارة سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: وجزم ابن كثير بأن الخليل أول من بنى البيت مطلقاً، وقال: إنه لم يثبت خبر عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل. انتهى. وفيه نظر لما ذكر من الآثار السابقة واللاحقة. =

obeikandl.com

بينه له. فكأن البيت كان موجوداً والذي يشهد لذلك أن اللَّه تعالى يقول في هذه القصة: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وهذا السكن كان حينما كان إسماعيل رضيعاً صغيراً، وتركه أبوه إبراهيم مع أمه هاجر في هذا المكان المقفر الموحش.

وبعد ذلك كبر إسماعيل وساعد أباه في رفع قواعد البيت، فهذا يدل على أن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم عليه السلام. والقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾ [آل عمران]، ولكن من هم الناس؟ هم آدم وذريته إلى أن تقوم الساعة.

إذن.. آدم من الناس، فإذا كان البيت قد وضع للناس فلا بد أن يكون قد وضع لآدم أيضاً، فوضع البيت كان قبل آدم؛ لأن البيت موضوع للناس وآدم من الناس، ومن هنا فمن قال: إن الملائكة هي التي بنته فقد صدق، ويكون إبراهيم قد ذهب إلى هذا المكان بوحي من اللَّه.

إذن.. هناك فرق بين إقامة مكين على مكان، فالبيت موجود ولكن الطوفان لما جاء جرف معالم البيت، فلما ذهبت معالم البيت أوحى اللَّه لإبراهيم أن يبنيه في هذا المكان من الوادي، وقالوا: إن اللَّه سبحانه بعث سحابة ظللت المكان ونطقت وقالت: يا إبراهيم خذ على قدري[1].

= قلت: والبيت موجود قبل إبراهيم عليه السلام وقد حجه هود وصالح عليهما السلام لما ورد في حديث ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما قال: لما مرّ رسول اللَّه ﷺ بوادي عسفان حين حج، قال: «يا أبا بكر أي واد هذا»؟ قال: وادي عُسفان. قال: «لقد مر به هود وصالح على بكرات حمر، خطمها الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق».
رواه أحمد في المسند [١/ ٢٣٢] وضعفه الشيخ شاكر [٢٠٦٧]، وقال ابن كثير في قصص الأنبياء [١/ ١١٤]: إسناد حسن، وزاد السيوطي عزوه في الدر [٣/ ٩٧] لأبي يعلى وابن عساكر. كما حجه موسى ويونس عليهم السلام بعد إبراهيم لما ورد في صحيح مسلم [١٦٦/ ٢٦٨]، وابن ماجه [٢٨٩١].
عسفان: اسم موضع بين الجحفة ومكة على طريق المدينة إلى مكة المكرمة.
بكرات: جمع بكرة، وهي الفتية من الإبل.
الخطم: جمع خطام وهو الحبل الذي تقاد به الناقة.
النمار: جمع «نمرة» وهي الشملة المخططة من مآزر الأعراب كأنها أخذت من لون النمر.
سبل الهدى والرشاد [١/ ١٤٨].

(١) روى البيهقي، عن وهب بن منبه رحمه اللَّه تعالى قال: «لما أغرق اللَّه الأرض رفع البيت فوضع تحت العرش، ومكثت الأرض خراباً ألفي سنة، فلم تزل على ذلك حتى كان إبراهيم =

Open Kandil.com

إذن . . ننتهي إلى أن البيت كان قبل إبراهيم؛ لأن إبراهيم لم يكن عمله في المكان وإنما كان عمله في المكين لقول اللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة] وكلمة يرفع معناها أن يوجد البعد الثالث؛ لأن المساحة لها طول وعرض، والارتفاع هو البعد الثالث، فكأن الذي بوأه اللَّه له هو المساحة طولاً وعرضاً، وبعد ذلك أمره برفع القواعد وبدأ في رفعها هو وإسماعيل عليهما السلام، وهما قد أتيا إلى هذا المكان ليبنيا البيت ويقيما الصلاة للَّه سبحانه، ويجب عليه أن يطهر هذا المكان من أي شيء يشعر بالشرك أو القذر.

هنا أول أمر صدر إلى إبراهيم عليه السلام في الآية الكريمة: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ [الحج: ٢٦]، فأول أمر هو عدم الشرك. وهل كان معقولاً أن يدخل إبراهيم في الشرك؟ فليس معقولاً أن يحدث منه هذا، ولكن اللَّه سبحانه حين يرسل رسولاً يصدر أمره إلى الرسول أولاً، فهو أول من يتلقى الأمر من اللَّه ليطبّقه على نفسه ثم يبلغ به أمته بعد ذلك، حتى لا يأمرهم بأمر هو عنه بنجوى. فمثلاً حينما يقول اللَّه سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، ثم يأتي النبي ليقول لنا اتقوا اللَّه يكون الأمر سهلاً علينا؛ لأن اللَّه أمر به رسوله قبل أن يأمرنا به.

بعض الناس يفهمون أن كلمة اتق اللَّه لا تقال إلّا لمن حدث منه ما يخالف التقوى، وهذا ليس صحيحاً؛ لأن المعنى المقصود هنا: ابدأ حركة حياتك بتقوى اللَّه، والحق سبحانه قال: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ فذكر كلمة شيء لينفي أقل مظهر من مظاهر الشرك وألوانه، من شجر أو حجر أو وثن مرسوم أو نجوم أو كواكب أو غير ذلك.

ومعنى ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾: يشمل الطهارة الحسية والطهارة المعنوية معاً؛ لأن

= عليه السلام فأمره اللَّه سبحانه وتعالى أن يبني بيته، فجاءت السكينة كأنها سحابة فيها رأس يتكلم، ولها وجه كوجه الإنسان، فقالت: يا إبراهيم خذ قدر ظلي فابن عليه ولا تزد شيئاً ولا تنقص. فأخذ إبراهيم قدر ظلها ثم بنى هو وإسماعيل البيت، ولم يجعل له سقفاً. . .».

وفي رواية عند الأزرقي في أخبار مكة، عن علي رضي اللَّه تعالى عنه: «قال اللَّه تعالى لإبراهيم: قم فابن لي بيتاً. قال: يا رب وأين أبني؟ فبعث اللَّه سبحانه وتعالى سحابة فيها رأس تكلم إبراهيم، فقالت: يا إبراهيم إن ربك يأمرك أن تخط قدر هذه السحابة، فجعل ينظر إليها ويأخذ قدرها، فقال له الرأس: قد فعلت». راجع سبل الهدى والرشاد [١/ ١٥٥ ـ ١٥٦].

الطوفان كان قد ضيع معالم البيت الحرام وجرف إليه الرمال وأعواد الحطب وغيرها، فلا بد أن يطهره مكاناً بأن ينظفه من هذه الأشياء التي جاء بها السيل، ثم يطهره عبادة بأن تكون العبادة فيه خالصة للَّه تعالى، وهذا التطهير من أجل الطائفين الذين يطوفون بالبيت ثم يرحلون عنه ﴿ وَٱلْقَآئِمِينَ ﴾: أي المعتكفين في البيت للعبادة والصلاة ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ هم الذين يذهبون في وقت الصلاة[1].

فهناك ثلاث حالات: إما أن يذهب الإنسان ليطوف ثم يخرج، وإما أن يقيم فيه معتكفاً وإما أن يأتي إليه وقت الصلاة ليؤديها، والركع السجود هم المصلون.

وبعد ذلك قال سبحانه: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج]. البيت بيت اللَّه والخلق كلهم خلق اللَّه، فلماذا تقتصر رؤية العين لبيت اللَّه على مَن قدر على الذهاب والإقامة عند البيت مثل إبراهيم عليه السلام؟

لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى لعباده أن يذهبوا لرؤية بيته الحرام؛ لأن هذا هو بيت اللَّه باختيار اللَّه فهو سبحانه الذي اختاره ووضعه للناس، ومساجدنا هذه هي بيوت اللَّه أيضاً، لكنها بيوت اللَّه باختيار خلق اللَّه، فالحق سبحانه أراد أن ينشر هذا الفضل على خلقه حتى يذهبوا لرؤية بيت اللَّه الذي اختاره لهم.

كلمة: ﴿ وَأَذِّن ﴾ معناها: أعلِم بفتح الهمزة وكسر اللام، والعلم أول مرتبة من مراتبه، الوسيلة فيه السماع بالأذن، ولذلك الأذان هو الإعلام، مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم]. فمعنى أَذِّن: أعلِم، وكلها جاءت من الأذن؛ لأنها وسيلة السماع الأولى والخطاب البدئي الذي به نتعلم كيف نقرأ، فقبل أن نقرأ لا بد أن نسمع.

حينما قال الحق: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾، لم يكن بجوار البيت الحرام أحد إلا إبراهيم وزوجه وابنه إسماعيل، في واد غير مسكون ولا مأهول، والناس بعيدون عنه، فإبراهيم سأل ربه، ومن الذي سيسمع صوتي بالأذان يا رب؟ فقال له الحق سبحانه: عليك أن تؤذن وعليَّ أن أُبلغ الآذان كلها[2]، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا

---

(١) في تفسير ابن كثير [٣/ ٢٠٩ ـ ٢١٠]: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ ﴾ قال قتادة ومجاهد: من الشرك ﴿ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون اللَّه وحده لا شريك له، فالطواف به معروف وهو أخص العبادات عند البيت فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿ وَٱلْقَآئِمِينَ ﴾ أي: في الصلاة ولهذا قال: ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده والصلاة إليه... إلخ».

(٢) قال أبو جهم: وأمر إبراهيم بعد فراغه من البناء أن يؤذن في الناس بالحج، فقال: «يا رب وما =

﴿رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]. ولذلك قالوا: في أصلاب بني آدم وفي أصلاب الذرية كلها بعد إبراهيم عليه السلام كل من سمع في عالم الذر أذاناً وقال: لبيك اللَّهم لبيك. فقد حج مرتين، وإن قال: لبيك اللَّهم لبيك، وأخذ يكررها يحج بمقدار ما لبى؛ لأن معنى كلمة لبيك أي إجابة بعد إجابة «نجيبك يا رب في هذه» واللَّه سبحانه طلب منا أشياء كثيرة، ولكن الأركان في الإسلام، أول ما نشهد، نشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمداً رسول اللَّه، وهذه مرة واحدة في العمر لندخل بها في الإسلام، ثم بعد ذلك نقيم الصلاة ونزكي ونصوم ونحج(١).

انظروا إلى هذه الأركان تجدوا الركن الوحيد الذي يدخل المسلم نفسه فيه دون أن يكون مستطيعاً، فيحرم نفسه ويحاول أن يستكمل المال اللازم لنفقات هذا الأمر وهو الحج، ولا يتكلف هذه المشقة في عبادة أخرى أبداً، وذلك لأن اللَّه تعالى حكم وقال: ﴿وَأَذِّن . . . يَأْتُوكَ﴾ [الحج: ٢٧]. فهم يأتونه مسرعين إلى هذا المكان الطاهر مصداقاً لدعاء إبراهيم عليه السلام في قول اللَّه تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فالقلوب تهوي إلى هذا المكان والهُوِيُّ أمر لا يملكه الإنسان باختياره؛ لأن الإنسان ساعة أن يكون في مكان مرتفع ثم يسقط ويَهْوِي إلى أسفل لا يكون له اختيار في ألا يسقط، فتجد الإنسان يكون فقيراً وقد يدخر من قوته وقوت عياله ويحرم نفسه من متع الحياة؛ ليوفر من المال ما يساعده على السفر لأداء فريضة الحج، ولا يفعل ذلك في أي ركن من أركان الإسلام بالذات، وفي الأمور الأخرى طَلب اللَّه من الناس قد يطاع فيها أو لا يطاع، لكن في هذه القضية حكَم المولى سبحانه فقال: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾.

= يبلغ صوتي؟ قال اللَّه جل ثناؤه: أذن وعليَّ البلاغ. . .».
سبل الهدى والرشاد [١/ ١٥٧].
وعن ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما قال: «لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: رب قد فرغت، فقال: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ قال: رب وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعليَّ البلاغ. قال: رب كيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس كتب عليكم الحج، حج البيت العتيق فسمعه من في السماء والأرض، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون».
رواه الحاكم في المستدرك [٢/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩]، وقال: حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(١) روى البخاري [٨] عن ابن عمر رضي اللَّه تعالى عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمداً رسول اللَّه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان».

إذن صدق القضية موجود، بعض أهل الفهم قالوا: هل الأمر بالأذان للحج كان لإبراهيم أو لأحد غيره؟ قالوا: الأمر كان لأحد غير إبراهيم عليه السلام لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج] ومعنى ﴿وَإِذْ﴾ كما قلنا: أي اذكر يا من أنزل عليه كتابي إذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت وأذن في الناس بالحج.

إذن.. الأمر هنا للرسول ﷺ هل تجد نصرانياً أو يهودياً يأتي إلى الكعبة؟! لا. فهذا النسك لا نشاهده في أمة من الأمم الأخرى إلا في أمة محمد ﷺ مع أنه ثبت أن موسى عليه السلام حج إلى الكعبة[1]. إذن فعل الأمر: ﴿وَأَذِّن﴾ إن أخذته على هذا المعنى كان المقصود به النبي محمد ﷺ.

نقول: صحيح، إننا لا نجد أحداً من الأمم السابقة يحج إلى بيت اللَّه الحرام؛ ولذلك نحن نحتج عليهم حين يزعمون أن الذبيح هو إسحاق، ونقول لهم: لو كان إسحاق هو الذبيح لكانت عملية الذبح والفداء ورمي الجمرات وغير ذلك عندكم في الشام، ولكنها هنا في مكة؛ لأن إسماعيل كان هنا في هذا المكان، ثم تذكروا جيداً أنكم قلتم في كتبكم في الإصحاح [٢٣، ٢٤ من سفر التكوين] إن اللَّه سبحانه وتعالى أوحى لإبراهيم أن يصعد على جبل فاران وأن يأخذ ولده الوحيد ويذبحه.

فولده الوحيد هو إسماعيل وليس إسحاق؛ لأن اللَّه تعالى أخبرنا في القرآن الكريم، أنه فدى إسماعيل وبشر إبراهيم بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء] فربنا يقول الصدق ويؤيد الحق ويجعل له منافذ تخفى على من يكذب، ولذلك يقولون: إن الذي يرتكب جريمة لا يمكن أن يصنع الجريمة الكاملة أبداً؛ لأن اللَّه تعالى يجعل فيها منفذاً للحق يمكن من خلاله الإمساك بالمجرم ومعاقبته، فمعنى الجريمة لا تفيد: إنك لا تستطيع أن تحتاط للجريمة أبداً؛ بل لا بد أن تترك فيها منفذاً يدل عليك ويجرك إلى العقاب، وهذه مهمة القاضي الفاهم الذي يستطيع بذكائه أن يكشف المجرم.

---

(١) عن ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ بين مكة والمدينة فمررنا بواد فقال: «أي واد هذا»؟. قالوا: وادي الأزرق. قال: «كأني أنظر إلى موسى عليه السلام ـ فذكر من طول شعره شيئاً لا يحفظه، وداود ـ واضعاً إصبعيه في أذنيه، له جؤار إلى اللَّه بالتلبية ماراً بهذا الوادي». قال: ثم سرنا حتى أتينا على ثنية فقال: «أي ثنية هذه»؟ قالوا: ثنية هَرْشَى أو لفت. فقال: «كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء عليه جبة صوف، وخطام ناقته ليفٌ خُلْبةٌ، ماراً بهذا الوادي ملبياً». رواه ابن ماجه [٢٨٩١] وصححه الألباني.

مثل القاضي الذي جاءه أحد الناس يشكو إليه من صديق كان يجلس معه في مكان معين وأعطاه أمانة لحفظها له، ولما طلبها منه أنكر أنه أخذها، فلما سأله القاضي: أين الأمانة التي أعطاها لك فلان في مكان كذا؟ أنكر أنه ذهب معه إلى هذا المكان أو أخذ منه شيئاً. فقال القاضي لصاحب الأمانة: اذهب إلى المكان الذي كنتما فيه وابحث جيّداً؛ فربما كنت قد نسيتها هناك وظننت أنك أعطيتها له أو ربما يكون أخذها منك ونسيها في هذا المكان.

فلما ذهب الرجل إلى هذا المكان وتأخر قال القاضي للمتهم: فلان تأخر، فقال المتهم: المكان بعيد. فقبض عليه وعلم أنه أخذ الأمانة فعلاً. فالمسألة تحتاج إلى فطنة القاضي وبصيرته حتى يصل إلى الحق.

ومعنى ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ كلمة: «رجال» بعض الناس يفهم أنها جمع رجل ولكنه جمع راجل[١]، وهو الذي يمشي على رجليه، والضامر[٢] أي الذي يركب فرساً والفرس الضامر هو النحيف من كثرة الجري، ومن ضمن تأكيد الفعل ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ أنه ذكر الماشين قبل الراكبين، والفج هو الطريق المتسع، والعميق هو الطويل الممتد.

ثم يقول تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحج] فالحجاج يشهدون في الحج منافع لهم، هذه المنافع هل هي دينية أخروية أم دنيوية؟ هذه المنافع تشمل الناحيتين معاً، فالذي يحج يستعد لهذه الرحلة فيجهز وسيلة ركوبه مثلاً، ويحضر لمن يعولهم مصالح حياتهم حتى يعود، وبعد ذلك يذهب إلى الأماكن المقدسة ليؤدي المناسك في هذا الوادي الذي ليس فيه زرع، فينفق ويشتري من البائعين فهذا يبيع وهذا يشتري.

فإذا نظرت إلى المنافع المادية تجدها موجودة، وكذلك الذي يحج حينما يذهب إلى هناك يأكل ويشرب وينام. فلا بد أنه سيؤجر البيت الذي سيقيم فيه هذه الفترة، هذه الأجرة يستفيد بها صاحب البيت ويعيش عليها فترة بعد موسم الحج. والحاج نفسه لكي يجمع هذه الأموال أدى حركة حياة في الكون وعمل واجتهد ليحصل عليها، هذه الحركة كان فيها نفع لغيره من المجتمع وإن لم يشعر بها، فمثلاً حينما يشتري الحاج خروفاً ليذبحه في الحج، هذا الخروف اشتراه تاجر وجاء به

---

(١) الرجال: جمع راجل أي ماشٍ، والراجل خلاف الفارس. لسان العرب [١١/ ٢٦٩].

(٢) الضُّمْرُ والضُّمْر: الهزال ولحاق البطن. لسان العرب [٤/ ٤٩١].

ليبيعه للحجاج، وهو اشتراه من منتج يربي هذه الأغنام ويتعهدها بالرعاية. فهذا المنتج انتفع والتاجر انتفع، وكذلك الراعي انتفع والسيارة التي نقلت هذه الأغنام انتفع صاحبها أيضاً، وحتى الذي سيذبحه انتفع أيضاً فكل هذه وغيرها منافع دنيوية ورزق يسوقه اللَّه إلى أهل هذه البلاد الطيبة. وهناك أيضاً البضائع التي يشتريها الحجاج من هناك من ملابس وهدايا وحلي؛ والمصريون مشهورون بهذه الصفة، فقبل أن يؤدي الحاج المصري نسكه تجده يشتري ما يحب من ملابس وسجاجيد للصلاة ومسابح وغيرها من الهدايا الأخرى.

فهذه وغيرها من المنافع المادية التي يشهدها الحاج حينما يذهب إلى هذه الأماكن، كذلك فإن الحاج منذ أن ينوي الحج ويبدأ في تجهيز نفسه والإعداد لهذه الرحلة تجده يسمو بنفسه في ملكوت الطاعة، ولا يمكن أن يفكر في معصية، بعد ذلك حينما يحضر الملابس وينوي السفر ويرتدي ملابس الإحرام نقول له: انتبه هناك أشياء كانت مباحة لك قبل ذلك، أصبحت غير مباحة لك الآن، فملابسك وهندامك[١] الذي كنت تفتخر به لا بد أن تنساه حتى نهاية الرحلة؛ لأن الناس يتميزون عن بعضهم بهندامهم فأنت تعرف قدْر الناس عادة من ملابسهم.

فالحق سبحانه يريد أن ينهي هذا التميز والإختلاف بين عباده المؤمنين فيجعل الجميع يلبسون شيئاً واحداً هو ملابس الإحرام، وبعد أن كنت ترتدي من الثياب أفخرها وأجملها وأطيبها، ومن العطور أزكاها، وتذهب إلى الحلاق لتقص شعرك، أصبح كل هذا ممنوعاً عليك، وهذا كله نوع من الأدب والالتزام والمساواة بين الناس أمام الخالق سبحانه وتعالى.

فاستعداد المسلم للحج يجعله إنساناً آخر لا يفكر في معصية؛ بل يسعى في الطاعة ويسمو إلى أفعال الخير؛ لأنه يجهز نفسه لهذه الرحلة التي يمحو اللَّه بها ذنوبه وخطاياه ويطهره من كل معصية، وبعد ذلك تجد أن إزالة التمييز بين الناس في ملابسهم وهندامهم يجعلهم كلهم سواء، فكلهم يرتدون ملابس الإحرام وكلهم شعثٌ غبرٌ[٢] مثل

(١) هندام: قال الأزهري: الهِندام لحسن القَد. انظر لسان العرب [١٢/ ٦٢٤].

(٢) في الحديث، عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي اللَّه تعالى عنهما، أن النبي ﷺ كان يقول: «إن اللَّه عز وجل يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة، فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً». رواه أحمد في مسنده [٢/ ٢٢٤] وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح.
الشَّعثُ: المغبر الرأس، المنتفش الشعر الذي لم يدَّهن. لسان العرب: [٢/ ١٦٠].
غبرا: أغبر الشيء: علاه الغبار، أي التراب. والمعنى ركبهم غبار الطريق لطول السفر وعدم الاعتناء بالمظهر. لسان العرب [٥/ ٥].

obeikandl.com

بعضهم، ثم يؤدب اللَّه جوارحهم فيأمرهم بعدم قتل الصيد أو قطع الشجر، وعدم الحلق أو التقصير أو حتى خلع شعرة واحدة وعدم التطيب إلى غير ذلك[١].

فهذا انضباط أقوى من انضباط الجنود في الجيش، فالحاج تأدب أولاً مع بني جنسه في أن كل تميز أو فوارق بينهم انتهت، ثم تأدب مع جوارحه، فكل جارحة لها عمل تلتزم به، ثم تأدب مع النبات فلا يخلعه أو يقطعه، ثم تأدب مع الحيوان فلا يصطاده أو يتعرض له بأذى، فهو بذلك تأدب مع كل الأجناس ولم يبق إلا الجماد فقط، هذا الجماد الذي تعتبره أدنى الأجناس سيأخذ منك دوراً، فتأتي للحجر الأسود لا بد أن تستلمه وتجتهد في أن تقبله[٢].

والحجر رمزية الجماد؛ لأن الجماد كل شيء ليس فيه النمو أو الحس فنجد الحاج الذي لا يتمكن من تقبيل الحجر الأسود يحزن ويشعر أن شيئاً قد نقص من حجه ويحاول ويتعب ويزاحم حتى ينال هذا الشرف ويقبل الحجر.

فانظر إلى انكسار نفس هذا الإنسان، وهو السيد الأعلى لجميع الأجناس يتأدب مع كل الأجناس ويأتي لأدنى الأجناس ليقبله، فانظر إلى طمأنينة النفس البشرية إلى أدنى أنواع أجناس الأرض.

إن المنافع التي يشهدها الحجاج تشمل المنافع الدينية والدنيوية؛ لأن الحاج يظل في طاعة للَّه ومراقبة له وهو يقول «لبيك اللَّهم لبيك» ومعنى لبيك، أي أن كل

---

(١) قال عبد الرحمن الجزيري: نهى الشارع المحْرِمَ عن أشياء بعضها لا يحل فعله، وبعضها يكره فعله: يحرم على المحرم عقد النكاح، وكذا الجماع ودواعيه، ويحرم الخروج عن طاعة اللَّه بأي فعل محرم، وتحرم المخاصمة مع الرفقاء والخدم وغيرهم، ويحرم التعرض لصيد البر بالقتل أو الذبح، ويحرم استعمال الطيب كالمسك في ثوبه أو بدنه، وقلْم الظفر، ويحرم على الرجل أن يلبس مخيطاً، أو محيطاً ببدنه، أو بعضه: كالقميص والسراويل، والعمامة والجبة، ويحرم أن يزيل شعر رأسه بالحلق أو القص أو غيرهما كما يحرم إزالة شعر غير الرأس. الفقه على المذاهب الأربعة [١/ ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧].

روى سالم عن أبيه قال: سأل رجل رسول اللَّه ﷺ: ما يترك المحرم من الثياب؟ فقال: «لا يلبس القميص، ولا البُرْنُس، ولا السراويل ولا العمامة، ولا ثوباً مسه ورس، ولا زعفران، ولا الخفَّين، إلا لمن لا يجد النعلين، فمن لم يجد النعلين فليلبس الخفين وليقطعهما حتى يكونا أسفل من الكعبين».

رواه أبو داود [١٨٢٣] وصححه الألباني.

(٢) عن ابن شهاب عن سالم أن أباه حدثه قال: قبَّل عمر بن الخطّاب الحجر ثم قال: «أمَا واللَّه لقد علمت أنك حجر. ولولا أني رأيت رسول اللَّه ﷺ يقبلك ما قبلتك» رواه مسلم [١٢٧٠/ ٢٤٨] وفي لفظ: «رأيت رسول اللَّه بك حفياً».

مشاغل الدنيا تطلبني وأنت يا رب طلبتني، فأنا ألبيك أنت أولاً؛ لأنك خالقي وخالق الأشياء التي تشغلني عنك، والأيام المعلومات هي: أيام التشريق.

معنى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٢٨] أي: يذكرون اللَّه ويشكرونه على الرزق الذي أعطاه لهم من بهيمة الأنعام استمتاعاً بها أكلاً، واستمتاعاً بأثمانها بيعاً، وقبل ذلك تشكر اللَّه على أنه سخر لك هذه الأشياء[(١)]؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى خلق خلقاً ذلله لنا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس] فأنت لم تأخذ هذه المخلوقات وتطوعها لخدمتك بقوتك أنت؛ بل لأن اللَّه هو الذي ذللها لك، ولذلك الحق سبحانه يترك بعض خلقه غير مستأنس ولا مذلل، ليبين لك أنه لولا أن اللَّه سخر لك هذا وذلله ما كنت تستطيع أن تنتفع به.

وكنت ضربت لكم مثلاً بالبرغوث وهو حشرة ضئيلة، ولكن لأنّ اللَّه لم يسخره لك، فهو يستطيع أن ينغص عليك عيشك، يحرمك من النوم ويحرمك من الراحة، كذلك أي ثعبان صغير يستطيع أن يفزع مجموعة من الناس ويرعبهم، ومثله أي ذئب أو حيوان مفترس، لكن انظر إلى الجمل هذا الحيوان الضخم الذي يقوده طفل صغير لماذا؟ لأن اللَّه سخره لك وذلله.

فاللَّه تعالى يريد أن يذكرك أنك لم تذلل لنفسك هذه الأشياء ولكن اللَّه هو الذي ذللها لك وسخرها لخدمتك.

مع أن هذا الجمل أو هذه الجاموسة أو البقرة، لو هاجت لما استطاع أحد أن يقف في طريقها، ولكن أنت تستخدمها وتستفيد بها وتشرب ألبانها وتأكل لحومها؛ لأنها مسخرة لك من اللَّه.

ومنتهى التذليل أن الحيوانات التي أحلَّها اللَّه لك تظل تنتفع بها طوال عمرك، فإذا حدث لها أي شيء يزهق روحها تجدها تمد رقبتها طالبة الذبح، والفلاحون عندما يقولون: «البهيمة طلبت الحلال» فكأنها تقول لك أنا لم أعد أنفعك في حياتك، فاجتهد أن تأكل لحمي بتذكيتي.

والحيوان الذي لم يُبح اللَّه لنا أكله تجده يموت دون أن يمد رقبته للذبح فسبحان اللَّه! فالشكر للَّه يكون على أنه خلق لنا هذه الحيوانات النافعة وذللها لنا مع

---

(١) يعني: الإبل، والبقر، والغنم كما فصلها سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام: ١٤٣]. تفسير ابن كثير [٣/ ٢١١].

Obeikandl.com

أن منها ما هو أضخم وأقوى منا، ونحن لم نستطع أن نذلل ما هو أضعف وأصغر منها.

ولذلك الفلاح يستخدم حماره في حمل مخلفات وروث المواشي إلى الحقل لتسميد التربة، ويحمل عليه الغلال إلى السوق ثم يركبه ويقضي به مصالحه في المدينة، والحمار في كل ذلك مطيع لصاحبه لا يكل ولا يمل ولا يتمرّد؛ لأنه مذلل.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ مع أن الذبح في الحج مقصود به إطعام الفقراء والمحتاجين من أهل الحرم، إلا أن اللَّه تعالى في هذه الآية قدم الأكل على إطعام البائس الفقير، وذلك لأن السادة من العرب قبل الإسلام كان الواحد منهم إذا ذبح ذبيحة للفقراء والمساكين يستنكف أن يأكل منها، وما دام يستنكف أن يأكل منها فلا يهمه أن تكون سمينة مليئة بالشحم واللحم، أو أن تكون نحيفة مهزولة ليس فيها شيء من ذلك، لكن لو عرف أنه سيأكل منها لا بد أن يختارها سمينة ومليئة باللحم[١].

والبائس[٢] هو الذي يبدو على شكله وهيئته أنه مسكين، لكن الفقير قد لا يملك شيئاً ولكن هنا لا يمنع أن تكون ملابسه نظيفة وهيئته معقولة، والأكل يكون من لحوم الهدى التي تتطوع بها دون أن يكون عليك شيء، مثل القران أو دم التمتع، أو دم لجبر مخالفة من المخالفات في الإحرام فتجبره بدم، مثل التعطر خلال فترة الإحرام، أو تقليم الأظافر، أو قص الشعر، أو تقصيره، كل هذه تستوجب الكفارة بدم[٣].

---

(١) وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم، فرخص للمسلمين فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل.
تفسير ابن كثير [٣/ ٢١١].

(٢) البؤس والبأس والبأساء: الشدة والمكروه إلا أن البؤس في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في النكاية. معجم مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني [٣٢].

(٣) الدماء في الحج:
١ ـ دم هدى: وهو ما يهدى من النعم للحرم، ويكون من الإبل ما له خمس سنين فأكثر ومن البقر ما له سنتان فأكثر، والغنم ما له سنة فأكثر، وهو واجب على من ترك واجباً من واجبات الحج أو العمرة كالتمتع والقران أو ترك الحلق أو التقصير.
٢ ـ الهدى المنذور: وهو واجب بالنذر.
٣ ـ هدى التطوع وهو ما يتطوع به المحرم وفي الهدى خلافات كثيرة مفصلة في كتب الفقه.
والأشياء التي إذا تركها الحاج لزمه دم:
=

فالأكل يكون من لحوم الْهَدْي التي تتطوع بها للبيت دون أن يكون عليك شيء، لكن إن نذرت هدياً لا تأكل منه، وإن كان دم قران لا تأكل منه، وإن كان دم تمتع لا تأكل منه، وإن كان دم جبر لذنب صنعته في الإحرام لا تأكل منه، وإنما تأكل من الصدقة المحض أو التطوع المحض.

وانظر إلى رحمة اللَّه تعالى في أنه أراد أن يجعل الغني القادر هو الذي يشتري الجمل أو البقرة أو الخروف، ثم يذبحها ويبحث عن البائس الفقير المحتاج ليأكل منها.

فالغني هو الذي يتعب ويبحث يشتري ويذبح، والفقير لا يكلف نفسه عناء شيء من ذلك، وما عليه إلا أن يأكل ويشكر اللَّه؛ فكأن اللَّه تعالى يقول للفقير: أنا لم أحرمك ولكن سخرت لك من يتعب من أجلك.

بعد ذلك يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج] القضاء إما أن يكون قضاء من اللَّه على الإنسان بأمر لازم محكوم به، وإما أن يكون قضاء من إنسان بين اثنين متخاصمين والقضاء يقطع الخصومة أولاً.

إذن.. القضاء هنا معناه القطع أي: ليقطعوا تفثهم، ولكن ما هو التفث؟ قال

= ١ ـ عند ترك الإحرام من الميقات.
٢ ـ عند ترك طواف الإفاضة.
٣ ـ عند ترك طواف السعي.
٤ ـ عند ترك واجب من واجبات الحج ـ الرمي ـ المبيت بمنى ـ الوجود بالمزدلفة.
٥ ـ عند فعل ما يبطل الحج فعليه دم وعليه القضاء.
٦ ـ دم الإحصار: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦].
٧ ـ التمتع: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.
٨ ـ القران: لحديث رواه الشيخان: أن النبي ﷺ ذبح شاتين وكان قارنا.
٩ ـ دم قتل الصيد: لقول عمر لمن قتل ظبياً: «اعمد إلى شاة فاذبحها وتصدق بلحمها واسق إهابها».
ومن احتاج إلى الحلق وهو محرم فهو مخير بين ثلاثة:
١ ـ صوم ثلاثة أيام.
٢ ـ إطعام عشرة مساكين.
٣ ـ ذبح شاة للفقراء. لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] من تصيد صيداً فقتله عامداً عالماً فعليه مثل ما قتل من النعم ـ أو إطعام مساكين أو عدل ذلك صياماً.

obeikandl.com

العربي: واللَّه ما عرفنا كلمة التفث في لغتنا إلا في القرآن الكريم، فلم تكن كلمة معروفة ودائرة على ألسنة العرب. فلما سألوا رجلاً من البادية عن معنى التفث قال: هو الوسخ الذي يأتي على الجسم من التراب والعرق مثلاً؛ لأن الحاج يظل مدة بلباس الإحرام لا يتطيب ولا يحلق شعره أو يقص أظافره أو شاربه فكل هذا من التفث فبعد أن يتحلل من إحرامه يقطع هذا التفث[١].

فمعنى: ﴿لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ أي: يقطعون ويزيلون الأدران التي لحقتهم من التزام موجبات الإحرام، وإن كان على أحدهم نذر فليوفه، ثم يطوفون بالبيت العتيق طواف الإفاضة. والطواف هو أن تدور حول شيء فتبدأ من نقطة وتنتهي عندها.

والطواف حول الكعبة معروف.

والبيت العتيق: هو الكعبة المشرفة، وكلمة عتيق تستخدم في اللغة استعمالات واسعة، والعتيق: بمعنى القديم، وما دام هو أول بيت وضع للناس فهو قديم.

والعتق يُمدح: لأن الشيء حين يكون قديماً فمعنى ذلك أنه هام ومحافظ عليه، ولا يحافظ على شيء إلا إذا كان مهماً أو له مكانة في النفوس، ومن ذلك الآثار والتحف، والعتيق أيضاً: هو الشيء الجميل الحسن.

والعتيق: هو المعتوق من سيطرة الغير مثل عتق العبد أيام وجود الرق والاستعباد، فبيت اللَّه عتيق لقدمه؛ لأنه أول بيت وضع للناس، وعتيق بمعنى نفيس ومهم؛ لأننا حينما نزوره يطهرنا اللَّه من الذنوب، وهذا شيء يحبه ويتمناه كل مسلم، كما أنه بيت اللَّه، وهو أيضاً معتوق من سيطرة الغير؛ لأن اللَّه يحميه من سيطرة الجبابرة وتحكمهم[٢].

---

(١) التفث: هو نتف الشعر، وقص الأظفار، وتنكُّب كل ما يحرم على المحرم، وكأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال. لسان العرب [٢/ ١٢٠].

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ قال ابن عباس: التفث: حلق الرأس، وأخذ من الشاربين، ونتف الإبط وحلق العانة، وقص الأظفار، والأخذ من العارضين، ورمي الجمار، والموقف بعرفة والمزدلفة.

تفسير الطبري [١٧/ ١٤٩].

(٢) عن عبد اللَّه بن الزبير رضي اللَّه تعالى عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إنما سُمِّي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار». رواه الترمذي [٣١٧٠] واللفظ له، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وضعفه الألباني، ورواه الحاكم في المستدرك [٢/ ٣٨٩] وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

والبيت العتيق بمكة لقدمه؛ لأنه أول بيت وضع للناس، قال الحسن: هو البيت القديم، دليله قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران]. وقيل لأنه =

فأبرهة حين أراد أن يهدم الكعبة أهلكه اللّه ودمر جيشه بأن سلط عليه أضعف جند من جنود اللّه وهي الطير الأبابيل، وجعله عبرة لكل طاغية يحاول أن يمس بيت اللّه بالسوء. وحتى الفيل وهو حيوان أعجمي كانوا إذا وجهوه إلى الكعبة برك[١]. وقد ذكر أن الفيل كان اسمه محمود وقيل له في أذنه: ابرك محمود وارجع راشداً، فإنك في بلد اللّه الحرام، فرفض الفيل أن يتحرك خطوة واحدة إلى الإمام.

وحينما ذهب عبد المطلب إلى أبرهة ليكلمه في الإبل التي أخذها جيشه قال له أبرهة متعالياً: كنت قد تهيبتك لأنك سيد قريش، وبعد ذلك تأتي لتكلمني في مائة بعير أصبتها لك ولا تذكر أي شيء عن البيت الذي فيه مجدكم والذي جئت لأهدمه؟! لقد سقطت من نظري. فما كان من عبد المطلب إلا أن قال له: أنا رب هذه الإبل، وللبيت ربٌ يحميه. وهذه حجة قوية فهو لم يترك البيت لمصيره خوفاً أو ضعفاً، وإنما تركه؛ لأنه يعلم يقيناً أن له رباً يحميه ويدافع عنه، وهذا الكلام زلزل أبرهة وأغاظه[٢].

= أُعتق من الغرق أيام الطوفان، دليله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ وهذا دليل على أن البيت رفع وبقي مكانه. وقيل: إنه أُعتق من الجبابرة، ولم يدَّعه منهم أحد. وقيل: سمي عتيقاً؛ لأنه لم يملكه أحد، والأول أولى. لسان العرب [١٠/ ٢٣٦].

(١) برك البعير: إذا أناخ في موضع فلزمه. لسان العرب [١٠/ ٣٩٦].

(٢) قصة أصحاب الفيل معروفة متواترة، وجعلها العرب مبدأ تاريخ يؤرخون به؛ فيقولون: حدث ذلك عام الفيل، أو بعد عامين من عام الفيل، وهكذا.
والقصة كما تروى: أن أبرهة بن الصباح ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي، بنى كنيسة في صنعاء تسمى «القُلَّيس»، وعزم على أن يصرف حج العرب إليها كما يُحج إلى الكعبة بمكة، فخرج رجل من بني كنانة فقعد فيها ليلاً، ويقال: إنه قضى بها حاجته أو أنه أحرقها، فأغضب الملك ذلك، فحلف ليهدمن الكعبة.
فخرج بالأحباش راكباً فيلاً عظيماً قوياً كبير الجثة لم ير مثله، يقال له: «محمود» ويقال: كان معه اثنا عشر فيلاً غيره لإرهاب العرب قاصداً مكة متغلباً على كل من وقف في طريقه، حتى وصل إلى المغمس قرب مكة ومعه رجل من ثقيف يقال له: «أبو رغال» دليلاً. ثم أرسل أبرهة رجلاً من الحبشة يقال له: الأسود بن مقصود ليغير على الأمكنة القريبة، فساق إلى أبرهة أموال قريش، ومنها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم، وبعث حناطة الحِمْيَرِي إلى مكة ليأتي له بسيد هذا البلد وشريفهم، ليخبره أنه لم يأت لحربهم وإنما أتى لهدم البيت العتيق.
وقال: إن عبد المطلب أقبل على أبرهة، وكان رجلاً جسيماً حسن المنظر، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعظمه وأكرمه، فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي، فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه: قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم =

= زهدتني فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟! قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه، وقال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك.

ثم رجع عبد المطلب وأخبر قومه بضرورة الخروج من مكة والتحصن والتحرز بالجبال، وذهب هو إلى البيت يدعو ويلح في الدعاء.

وعبأ أبرهة جيشه في الصباح، وهيأ فيله، فلما وجهوا الفيل «محمود» إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه، فقال: ابرك محمود، أو ارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد اللّه الحرام، ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى صعد الجبل، فكانوا كلّما وجهوا الفيل إلى جهة البيت برك ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى اليمن أو الشام أو الشرق أسرع وهرول.

وفي اليوم الثاني أرسل اللّه عز وجل جنده بحجارة من سجيل على جند أعدائه، فتناثر لحمهم وتساقط، وهلكوا في كل طريق ودرب، وحفظ اللّه بيته وحمى حرمه، وجعل نفيل يقول:

أيــن الــمــفــر والإلٰــه الــغــالــب والأشرم الــمــغــلــوب لــيــس الــغــالــب

قال السهيلي في الروض الأنف: إنه سمع من يقول: إن الفيلة صنف منها يبرك كما يبرك الجمل.

راجع: السيرة النبوية لابن هشام [١/ ١٦٣]، والروض الأنف للسهيلي، وسبل الهدى والرشاد للصالحي [١/ ٢١٤]، والتفسير الكبير للفخر الرازي [٣٢/ ٩٦]، وغيرهم.

obeikandl.com

البيت قبل إبراهيم . .
واللّه الذي أرشده إليه

قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج] إذن: الحق سبحانه هو الذي أرشد إبراهيم عليه السلام إلى المكين، أي إلى مكان البيت الحرام ومساحته بالضبط، ليبدأ بعد ذلك إقامة البيت ومعه إسماعيل عليه السلام بعد أن كبر قليلاً ليعاونه في رفع البيت الحرام.

إذن.. نتعرف هنا على الترتيب التالي:

أولاً: أن المكين كان موجوداً من قبل إبراهيم عليه السلام.

ثانياً: أن إبراهيم عليه السلام كان يعرف المنطقة التي يوجد بها البيت الحرام ـ المكين ـ وإن كان لم يتعرف بعد على مساحته بالتحديد.

ثالثاً: أن إبراهيم عليه السلام أسكن هاجر وابنها إسماعيل في هذه المنطقة.

رابعاً: صدر أمر الحق لإبراهيم أن يقيم البيت الحرام بعد أن أوضح له مكانه بالضبط. لقد أوضح الحق مساحة المكين والذي يجب عليه أن يقيم القواعد له هو وابنه إسماعيل عليهما السلام.

خامساً: أننا عندما نبحث أي أمر أو قضية في القرآن الكريم فإننا نجمع كل ما يتعلق بها من القرآن، حتى لا نبحث في آية بمعزل عن أخرى، والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران] ومعنى ذلك أن الحق قد أوضح لنا أن هناك بيتاً للناس هو أول بيت وضعه الحق للخلق[1] من قبل أن يهبط آدم إلى الأرض، ذلك أن الناس هم آدم وزوجه وأبناؤه إلى أن تقوم الساعة.

---

(١) عن أبي ذرّ رضي اللّه تعالى عنه قال: قلت: يا رسول اللّه أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فَصَلِّ، فإن الفضل فيه».

رواه البخاري [٣٣٦٦] واللفظ له، ومسلم [١/٥٢٠] وأحمد [٥/ ١٥٠].

obeikandl.com

إن الحق يوضح لنا أن البيت وضع للناس قبل أن يوجد الناس، وهكذا نعرف أن البيت الحرام كان موجوداً قبل إبراهيم عليه السلام؛ بل وقبل آدم عليه السلام، إن آدم لم يضع البيت ولكنه نزل إلى الأرض ليجد البيت[١]، وهكذا يرد الحق على الخلق بأنه هو الذي أمر الملائكة أن تقيم البيت ليستقبله آدم وأبناؤه من بعده، ليصير البيت مثابة للناس جميعاً من أول آدم، وعندما جاء إبراهيم عليه السلام إلى «المكين» كان يعرف أن هناك أرضاً لبيت وضعه اللَّه للناس ليثوبوا إليه، وبعد أن كَبُرَ إسماعيل قليلاً تلقى إبراهيم العلم عن اللَّه بمكان البيت الحرام ليقيمه مع ابنه إسماعيل.

إن قصة البيت الحرام تبدأ منذ اللحظة التي أراد فيها الحق أن يجعل في الأرض خليفة خلق اللَّه الأرض وقدر فيها أقواتها، وأعد اللَّه لآدم وزوجه بيتاً؛ ليثوب إليه آدم وأبناؤه من بعده ليكونوا في أمان.

---

(١) قال صاحب سبل الهدى والرشاد [١/ ١٤٦] في عدد المرات التي بنيها البيت:

الأولى: عمارة الملائكة:

روى الأزرقي عن علي بن الحسين رضي اللَّه تعالى عنهما أن رجلاً سأله ما بدء هذا الطواف بهذا البيت؟ ولم كان؟ وأنى كان؟ وحيث كان؟ فقال: أما بدء هذا الطواف بهذا البيت فإن اللَّه تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ـ وساق القصة إلى أن قال: فوضع اللَّه سبحانه وتعالى تحت العرش بيتاً على أربع أساطين من زبرجد وغشاهن بياقوتة حمراء، وسمى البيت الضُراح، ثم قال للملائكة؛ طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش. فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش فصار أهون عليهم، وهو البيت المعمور الذي ذكره اللَّه تعالى، يدخله كل يوم وليلة سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبداً، ثم إن اللَّه سبحانه وتعالى بعث ملائكة فقال: ابنوا لي بيتاً في الأرض بمثاله وقدره، فأمر اللَّه سبحانه وتعالى من في الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.

المرة الثانية: عمارة آدم عليه السلام:

روى البيهقي في الدلائل عن ابن عمر رضي اللَّه تعالى عنهما، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «بعث اللَّه تعالى جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما: ابنيا لي بيتاً، فخط لهما جبريل، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أجابه الماء ونودي من تحته: حسبك يا آدم. فلما بناه أوحى اللَّه تعالى إليه أن يطوف به، وقيل له: أنت أول الناس، وهذا أول بيت وضع، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح، ثم تناسخت القرون، حتى رفع إبراهيم القواعد من البيت. وانظر أول من بنى الكعبة ص [٥٧٧] فيها العمارة الثالثة، والرابعة.

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير والطبراني موقوفاً. وزادوا: زعم الناس أن آدم بناه من خمسة أجبل: من حراء، ولبنان، وطور زيتا، وطور سيناء، والجودي. وذكر الحديث المتقى الهندي في كنز العمال [٣٤٧١٨] وعزاه للبيهقي وابن عساكر، قال: وقال البيهقي: تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً.

[المصدر السابق].

وتلقى إبراهيم عن الحق العلم بمكان البيت فأقام جدرانه، فقام إبراهيم بإتقان المهمة التي كلفه بها الحق. لقد أقام إبراهيم جدران الكعبة على قدر ما تطول يداه، فذلك الزمن لم يكن به أدوات بناء كالتي نعرفها حالياً بل كان زماناً بدائياً؛ لذلك أراد إبراهيم عليه السلام أن يحتال بالعقل البشري وأراد أن يزيد ارتفاع جدران البيت فأوجد الحجر الذي يقف عليه ليزيد في الارتفاع.

إذن . . فاتخاذ المقام الذي وقف عليه إبراهيم وهو يبني، إنما هو دليل على أن إبراهيم عليه السلام لا يؤدي تكليفات الحق أداءً شكلياً إنما يؤدي أداء المحب. لقد أحب إبراهيم عليه السلام تكليف الرحمٰن له فحمل حَجَراً يبني به الجدران للبيت الحرام، وهو حجر من حجم متوسط يستطيع أن يحمله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام.

ولذلك فعندما يرى المسلم الحجر الذي وقف عليه إبراهيم ليُعَلّي جدران البيت الحرام فإنه يجد أن ذلك الحجر من ناحية الحجم والوزن، في طاقة الإنسان أن يحمله مع ابنه.

إن هذا الحجر هو سمة المحبة لإكمال التكليف، وكان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ينقلان هذا الحجر من مكان إلى مكان، يضع إبراهيم الحجر فوق الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار، ولقد وجد الناس في مقام إبراهيم غوراً يشبه القدمين وليس فيه النتوءات التي توجد في القدم، وعندما سُئلت عن سر عدم وجود النتوءات قلت بالاجتهاد البشري: يمكننا أن نظن أن خليل الرحمٰن قد حفر هذا القدر في الحجر ليثبت به قدميه وهو يرفع الحجر فوق الحجر ليُعَلّي من جدران البيت الحرام، وهكذا جعل الحق هذا المقام سمة وآية بينة لنرى الدليل على حب التكليف الرباني.

إن كل منهج اللّه بالنسبة لخلقه هو تكليف، ويريد الحق أن يبقي مقام إبراهيم خليل الرحمٰن سمة لحب التكليف الرباني، وكأن الحق يريد أن يعلم الخلق أن إبراهيم كان بشراً قد أحب التكليف فأتمه وأكمله، ولذلك كان أمر الحق أن نجعل هذا المقام مصلى وبعد ذلك يأتي قول الحق: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة] ولنا أن نسأل كيف يصدر أمر الحق إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت رغم أنهما قد أكملا بناءه فوراً.

ألم يكن المكان طاهراً؟ إن هذا السؤال يدلنا على أن البيت الحرام قبل أن يطهر، كانت الناس تذبح فيه الذبائح وتترك فيه بقايا الدم وغير ذلك، ولذلك

صدر أمر التطهير للبيت[١] ولكن لمن يتم تطهير البيت الحرام؟

إن الحق تبارك وتعالى يحدد الفئات الثلاث التي يتم من أجلهم تطهير البيت الحرام.

الفئة الأولى: هم الطائفون أي: الذين يطوفون حول البيت، وكان تطهير البيت الحرام من بقايا القاذورات أو الأصنام التي تخلفت من عهود وثنية سابقة على تكليف إبراهيم عليه السلام بإقامة البيت الحرام[٢].

والفئة الثانية: هم العاكفون والمقصود: المقيمون حول البيت الحرام.

والفئة الثالثة: هم الركع السجود: أي المصلون، ويستطيع الإنسان أن يكون من الفئات الثلاث في آن واحد حين يحج أو يعتمر إلى بيت اللَّه الحرام فهو يدخله طائفاً ويجلس فيه عاكفاً، ويقيم الصلاة فيه، فيصبح من الراكعين الساجدين.

كأن الحق تبارك وتعالى قد أوكل إلى خليله إبراهيم عليه السلام أن يطهر هو وابنه إسماعيل البيت الحرام؛ لأنه سيكون قبلة لكل مؤمن يطوف به أو يعتكف فيه، أو راكع أو ساجد في أي مكان في الدنيا.

وبعد ذلك يقول الحق: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة]، وكأن الحق يريد أن يذكرنا هنا بأن البيت الحرام الذي كلَّف الخلق بأن يجعلوه آمناً، هذا البيت هو بدعاء إبراهيم مطلوب له دوام الأمان.

إن الحق قد قال من قبل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾. وهكذا يكون مطلوب إبراهيم بالدعاء وهو طلب لاستمرار تكليف البشر بدوام الأمان في البيت الحرام إنه طلب لموجود أي طلب لدوام ذلك المطلوب، ومثال على ذلك قول الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ

---

(١) قال صاحب سبل الهدى والرشاد [١/ ١٥٥]: وفي حديث أبي جهم «عند ابن سعد: وحلَّقت السَّكينة كأنها سحابة على موضع البيت فقالت: ابْنِ عليَّ. فلذلك لا يطوف بالبيت أحد أبداً كافر ولا جبار إلا رأيت عليه السكينة، فبنى إبراهيم البيت فجعل طوله في السماء تسعة أذرع وعرضه ثلاثين ذراعاً، وطوله في الأرض اثنين وعشرين ذراعاً، وأدخل الحِجْرَ وهو سبعة أذرع في البيت، وكان قبل ذلك زَرْباً لغنم إسماعيل، وإنما بناه بحجارة بعضها على بعض ولم يجعل له سقفاً، وجعل له بابين، وحفر له بئراً عند بابه خزانة للبيت يلقى فيها ما يهدى للبيت وجعل الركن عَلَماً للناس.

(٢) قلت: وكذا تطهير البيت من زَرْبِ غنم إسماعيل عليه السلام، كما جاء في حديث أبي جهم المذكور بالتعليق السابق.

﴿أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء].

إن الحق يكلف المؤمنين به بأن يديم كل منهم الإيمان باللَّه ورسوله والكتاب الذي أنزله على رسوله، والكتب السابقة المنزلة على الرسل.

إذن.. فإنْ كان المطلب موجوداً، فلنا أن نفهم أن ذلك يعني أن يظل الموجود دائماً، وأن يتواصل التكليف الإيماني من جيل إلى جيل. ويمكننا أن نفهم دعاء إبراهيم عليه السلام، على أنه دعاء بالاطمئنان للمقيمين حول البيت، ذلك أن بيت اللَّه الحرام موجود بواد غير ذي زرع، لذلك فقد يعيش فزعاً وغير آمن؛ لأن قوت بدنه غير موجود، وإمكانية استخراج هذا القوت بالزراعة غير متوافرة.

فإن أردنا الأمن المطلق فلنعلم أن اللَّه حين يخاطب المؤمنين بطلب الإيمان فمراد ذلك الدوام على الإيمان، وإن أردنا الأمان على نوع خاص فإبراهيم يدعو ربه بأن يجعل من بلد بيته الحرام بلداً آمناً على وجه الخصوص، ولنا أن نلحظ أن دعاء إبراهيم في هذه الآية جاء بكلمة «بلد» نكرة أي بدون ألف ولام تسبقها، وجاءت في آية أخرى وهي معرفة أي تسبقها ألف ولام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم]. إن دعاء إبراهيم يختلف في الآيتين حتى نفهم فضل اللَّه على العباد، فالدعاء الأول هو فضل تحقيق ما تمناه إبراهيم، فهذا المكان لم يكن بلداً، إنما كان مكاناً مطموراً فيه البيت الحرام من غفلة الناس، والدعاء الثاني هو أن يديم اللَّه الأمن على هذا البلد بعد أن أصبح بلداً بالفعل. ولنا أن نعرف أن كلمة «بلد» حين نسمعها، فإن الذهن ينصرف إلى المدينة التي بها بيوت وأسواق وخلاف ذلك من المرافق، وكلمة «بلد» مأخوذة من الأثر الذي ينشأ في الجلد فيتميز عن بقية الجلد، وانتقلت التسمية إلى الأرض التي تقام عليها المباني وغيرها؛ لأن المباني تصبح واضحة كالندوب أو العلامات التي وُجِدَت في الجلد[1].

ولنا أن نلحظ فطنة النبوة في دعاء إبراهيم حين قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إن دعاء إبراهيم عليه السلام يوضح أنه حصر مطلبه في رزق المؤمنين باللَّه واليوم الآخر، هذا الدعاء يوضح أن إبراهيم عليه السلام قد استوعب الدرس الذي سبق أن لقنه له اللَّه ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾،

---

(١) بلد: قال الأزهري: كل موضع متحيز من الأرض عامر أو غير عامر، خالٍ أو مسكون، فهو بلد والطائفة منها بلدة، وفي الحديث: «أعوذ بك من ساكن البلد». لسان العرب [٣/ ٩٤].

لذلك فعندما جاء إبراهيم ليطلب الرزق لأبنائه، طلبه للمؤمنين منهم وطلب رزق الثمرات لهم وحدهم.

هكذا كانت اليقظة في استقبال التكليف عن اللَّه، وهكذا كان أدب التعلم عن اللَّه، لكن رحمة اللَّه لا تتوقف. إن رحمة اللَّه قادرة على استيعاب المؤمن والكافر معاً، إن الرزق في الأرض مقدر للمؤمن وللكافر، إن الحق ينبه إبراهيم ويصحح له: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة]، إن الحق يبلغ إبراهيم أن المؤمن من ذريته له رزق الدنيا وجنّة الآخرة، ولهم في الدنيا الإمامة في القيم أما في رزق المادة من طعام وشراب فذلك منحة للمؤمن ومنحة للكافر رغم أني أعذبه في الآخرة[1].

كأن اللَّه يقول لإبراهيم: إنني حين استدعيت الخلق إلى الدنيا استدعيت المؤمن والكافر، وسخرت ما في الأرض للمؤمن والكافر، وما دمت قد استدعيت المؤمن والكافر فلا بد أن أضمن له مقومات حياته، لكن حساب القيم يختلف، إن للمؤمنين أن تظل فيهم الإمامة؛ لأن الإمامة هي اتباع المنهج والتكليف الإيماني بحب. أما الكافرون فلهم عذاب الجحيم في الآخرة.

نسأل اللَّه أن ينجينا من عذاب الآخرة وأن يهدي قلوبنا إلى اتباع منهجه.

❁❁❁

(١) قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء].

قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: الكافرين ترتيباً على الآية الأولى ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الثانية يعني المؤمنين ترتيباً على الآية الثانية ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ فعطاء اللَّه في الدنيا مكفول للكافر والمؤمن لم يحظره اللَّه سبحانه على أحد من خلقه ليقيم حرية اختيار العقيدة وعدم الإكراه عليها كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. فلو أن اللَّه تعالى حرم الكافرين لكفرهم لدخلوا الإسلام جبراً، ولو أن اللَّه حرم المؤمنين انتظاراً لثواب الآخرة لكفروا قهراً، وهذا ليس مراد اللَّه تعالى إذ قال: «فمن شاء فليؤمن ـ وله الجنة ـ ومن شاء فليكفر ـ وله النار». وانظر تفسير ابن كثير [٣/ ٣٣]. عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه تعالى عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن اللَّه عز وجل يعطي الدنيا من يُحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه اللَّه الدين فقد أحبه...» جزء من حديث رواه أحمد [١/ ٣٨٧] وضعفه الشيخ شاكر في المسند [٣٦٧٣] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

هجرة إبراهيم وهاجر إلى مكة

﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾. التعبير هنا أن هذا الوادي لا يصلح فيه الزرع؛ لأنه أرض صخرية ولو أنها كانت أرضاً رملية أو نصف رملية مثلاً لكان من الممكن أن نستصلحها ونزرعها. إذن قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ أي: لا أمل في المجهود الإنساني لزراعتها ولا يوجد إلا العطاء الرباني، ولكن هل سيدنا إبراهيم هو الذي اختار هذا المكان القفر الذي لا زرع فيه ولا ماء ولا حياة؟ أو أن اللَّه هو الذي اختار له هذا المكان[1]؟.

---

(١) عن ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما قال: «أول من اتخذ من النساء المنطق من قبلُ أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ـ وهي ترضعه ـ حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: اللَّه أمرك بهذا؟ قال: «نعم» قالت: «إذن لا يضيعنا» ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ أو قال يتلبط ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان الجَهِدِ حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صهٍ ـ تريد نفسها ـ ثم تسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف. =

إن الاختيار من اللَّه سبحانه فهو الذي اختار المكان، وأمر إبراهيم بالإقامة

= قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم اللَّه أم إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عيناً معيناً».

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت اللَّه يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن اللَّه لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ـ أو أهل بيت من جرهم ـ مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا ـ قال وأم إسماعيل عند الماء ـ فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس» فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشَرٌ، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد. قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنَّا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك. قال ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، إلحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء اللَّه، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على اللَّه، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللَّهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌ» ولو كان لهم لدعا لهم فيه؛ قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومُريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة ـ وأثنت عليه ـ فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنَّا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أُمْسِك، ثم لبث عنهم ما شاء اللَّه، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد. ثم قال يا إسماعيل، إن اللَّه أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن اللَّه أمرني أن أبني ها هنا بيتاً وأشارا إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ـ قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى =

فيه، ولذلك قال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ عبارة ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ هي حيثية الرضا بالتكليف، فكأنه أحب هذا المكان رغم قفره، طاعة له سبحانه. مثلما تقول لأحد: اذهب إلى مكان كذا لتقابل فلاناً فيقول لك: يا أخي المكان بعيد، والمواصلات صعبة، ولكن سأذهب من أجل فلان هذا؛ لأني أحبه وأتمنى خدمته.

إذن.. فهناك أمر تكليفي سينفذ برضا وحب وسيأخذ صاحبه ثوابين ثواب حب التكليف وثواب القيام بالتكليف.

وحب التكليف مثل الرجل الذي قال: اللَّهم إني عصيتك، ولكني أحب من يطيعك، فاجعلها قربة لي؛ لأنه يفرح بتنفيذ التكليف ولو من غيره؛ لأن في تنفيذه حتى من غيره مصلحة له؛ ولذلك فإن ربنا سبحانه حين علمنا أن نناجيه في فاتحة الكتاب في أول الصلاة قال سبحانه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ

= إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له. فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة] فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ انتهى. رواه البخاري [٣٣٦٣، ٣٣٦٤، ٣٣٦٥] واللفظ له. والنسائي في الكبرى [٨٣٧٩/١] وفي حديث أبي جهم: «كان إبراهيم يزور هاجر كل شهر على البراق يغدو غدوة فيأتي مكة، ثم يرجع فيقيل في منزله بالشام» قال الحافظ في الفتح [٧/ ٥٦]: وروى الفاكهي من حديث علي بإسناد حسن نحوه.

وعن علي بن أبي طالب رضي اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «فناداها جبريل فقال: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أم ولد إبراهيم، قال: فإلى من وكلكما؟ قالت: إلى اللَّه، قال: وكلكما إلى كاف».

رواه الطبري بإسناد حسن كما قال الحافظ في فتح الباري [٧/ ٥٣].

وعن عبد اللَّه بن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما قال: «لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل، ومعهم شنة فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة، ثم رجع إبراهيم إلى أهله فاتبعته أم إسماعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال: إلى اللَّه. قالت: رضيت باللَّه. وفي لفظ آخر: «... فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: اللَّه أمرك بهذا؟ قال نعم. قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت..» رواه البخاري [٣٣٦٣، ٣٣٦٤، ٣٣٦٥] واللفظ له. والنسائي في الكبرى [٨٣٧٩، ٨٣٨٠]، والبيهقي في الدلائل [٢/ ٤٧ ـ ٥٢]. وقد عزاه الحافظ في النكت الظراف على الأطراف [٤/ ٤٣٩]، لسعيد بن داود في تفسيره، وللطبري في تفسيره [١٣/ ١٥٣ ـ ١٥٤].

وأما الحافظ ابن حجر في فتح الباري [٧/ ٥٠ ـ ٥١] فقد عزاه: لابن السكن والإسماعيلي والفاكهي والأزرقي وعمر بن شبه في كتاب مكة، وأبو نعيم في المستخرج.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]. ومع أن المصلّي الذي يقرأ الفاتحة في الصلاة فرد وليس مجموعة، فإنه لم يقل إياك أعبد؟ وإنما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فحشر نفسه في زمرة العابدين؛ لعل الله يقبلهم من أجل واحد فيهم، فتكون الصفقة رابحة فكأنه يقول: يا رب اقبلني وأنا عاص من أجل هذا الجمع من عبادك الصالحين، ولذلك فإنهم يقولون: إن الذي يفعل معصية لا يغضب من الطائعين بل يفرح بهم؛ لأن فرحته بالطائعين دليل على حب التكليف لكنه لا يقدر على نفسه فكأنه يقول: ما دمت أحب التكليف فيا رب أكرمني من أجل ذلك. لماذا نقول هذا الكلام؟ لأن قوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ يعني أن إبراهيم لم يأت إلى هذا المكان من نفسه وإنما جاء تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى، ولذلك ستقول له زوجته بعد ذلك: ما الذي جاء بك إلى هذا المكان؟ هل هو أمر ربك؟ أو من عندك؟ فيقول لها: ربنا هو الذي أمرني بهذا. فتقول له: ما دام الله هو الذي أمرك بهذا فلن يضيعنا.

أما معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فمعناه أن هذه ليست شهوة سياحة، وإنما ليقيمَ الصلاة فما دام هذا المكان هو بيت الله المحرم فلا بد أن يعبد فيه. ربما يقول أحد: بيوت ربنا كثيرة، فنقول له: هناك فرق بين بيت الله باختيار خلق الله، وبين بيت الله باختيار الله فإن خلا بيت من بيوت الله التي أقيمت باختيار خلقه فليس هذا كما يخلو بيت الله باختيار الله، فبيت الله باختياره يجب أن تتصل فيه العبادة.

إذن.. فالحيثية أننا نأخذ أمر الوجود في هذا المكان الذي ليس فيه من أسباب الحياة ولا مقوماتها شيء، على أن الله أمر وما دام قد أمر فلماذا في هذا المكان بالذات؟

قال: لأن هذا بيت باختياري ولا يصح أن يخلو من مصلين وعابدين لي، ولذلك أرى ألا نمكن أحداً من الإقامة في هذا البيت إلا العابدين الموجودين للعبادة فقط، فإن جربنا على أحدهم معصية واحدة نقول له: لا تسكن في هذا البلد ونعمل سياجاً حول الحرم فمن يريد أن يعيش عيشة حرة يخرج منه لأن هذا المكان كما قال الحق سبحانه: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وما دام قد قال: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فلا بد لمقيم الصلاة من إقامة حياة، والمقوِّم الأول فيها أن يأكل ويشرب لذلك قال تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، أفئدة جمع فؤاد، والفؤاد، هو القلب، والأفئدة تطلق على الطائفة أيضاً.

لكن ما علاقتها هنا «بالفؤاد» الذي هو القلب؟ قالوا: لأن الهوى في الحجيج

هوى قلوب، وليس هوى جيوب. فالإنسان يكون غير قادر على نفقات الحج، ومع ذلك يحرم نفسه ويستدين حتى يحج.

فالفريضة الوحيدة التي يدخل الناس أنفسهم فيها وهم غير مطالبين بها إلا في حالة الاستطاعة هي الحج، تجد الإنسان غير مستطيع مالياً ومع ذلك يظل سنوات يحرم نفسه ويدخر حتى يحقق رغبته في أداء الحج.

إذن.. هي مسألة قلوب؛ وبذلك تتضح علاقتها بقول اللَّه تعالى: ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وكلمة: ﴿تَهْوِىٓ﴾ «الهاء والواو والياء». لها معان متعددة:

«هَوِي يهوَى» بالكسر أي: سقط على مكان ولا إرادة له في السقوط، فساعة يسقط حجر من أعلى كأنه مقهور على السقوط. إنما «هوَىَ يَهوَى» بالفتح بمعنى: أحب. إذن: فهذا ميل قلوب، وذلك ميل قوالب وقوله سبحانه: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ يعني: أنهم سيكونون في مكان ليس فيه زرع ولا شيء من مقومات الحياة.

ومع ذلك فقد شاءت إرادة اللَّه أن يكون هذا المكان القاحل المقفر، شيئاً آخر تماماً؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى قال: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، فكانت كل خيرات الدنيا تأتي إلى هذا المكان حتى قبل أن يُكتشف البترول ويَعُم الخير وإياك أن تفهم أن ذلك باختيار الذين يأتون البيت الحرام؛ لأن اللَّه قال: ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وكلمة: ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ كأنها جباية أي: أمر مفروض ففي الطائف مثلاً أنواع كثيرة من الفاكهة والثمار حينما تذهب إلى السوق لتشتري يقولون لك: هذه ثمار مكة، اشتراها من مكة شيء عجيب!! وقوله سبحانه ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ كلمة: ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ هذه إن جعلتها في الثمرات فإنك إن سافرت إلى البلد الحرام تجد فيه فاكهة الشتاء موجودة في الصيف، وفاكهة الصيف موجودة في الشتاء وهكذا.

لأن هذه الثمار جاءت لها من كل بقاع الأرض فهي نتيجة كل البيئات والأجواء، ليس ذلك فقط بل هي الآن تنمو بالنمو الحضاري لأن ثمرات العقول المفكرة تذهب إلى هناك حتى أنهم جعلوا من مدينة جدة، المدينة النموذجية في العالم فهذه ثمرات الأفكار وثمرات التخطيط والهندسة والإمكانات. كنا في الماضي حين نذهب للحج نأخذ الزاد والملح والإبرة والخيط، ولكن بعد ذلك حين ذهبنا ومكثنا في البعثة أصبحنا نأتي بكماليات الحياة من هناك من مكة فقوله سبحانه: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾. قال بعض الصالحين: لو قال الحق سبحانه فاجعل أفئدة الناس أو قال: فاجعل الناس يهوون إليهم لو كان النص كذلك لما وُجِد

لأحد به مكان ولو لم يقل: ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ لكان النصارى واليهود يذهبون ليحجوا. ثم يقول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ بعد أن اطمأن على أنه أصبح بلداً، وتحقق له الأمن العام والأمن الخاص، واطمأن على أنه سيأتيه الرزق، والخيرات عاودته الدوافع إلى المجيء لهذا المكان؛ لأنه سيترك زوجته هاجر وابنها إسماعيل فأصبح مشغولاً بهما؛ ولذلك قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾.

الضمير هنا بالجمع وبعض المفسرين يقول: قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا نُخْفِى﴾. أي: ما أخفى من الحب لهاجر وإسماعيل، وما نعلن أي من الجفاء أمام سارة لهاجر وابنها كأن المعاني النفسية عاودته عندما همّ بالرحيل نقول له: قوله: ﴿مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ دليل على أنها ليست مسألة سهلة أن يترك هاجر ووليدها في مكان ليس فيه زرع ولا ماء ولا بشر.

فهي مسألة صعبة على النفس؛ ولذلك فإن هاجر صبرت مدة طويلة لم تسأل إبراهيم عن شيء حتى همّ بالرحيل فقالت له: كيف ستتركنا في هذا المكان؟ هل هذا من رأيك أو أمر ربنا؟ فقال لها: ربنا هو الذي أمر، فقالت له: إذن فلن يضيعنا.

وتأكدت لها هذه المسألة عزلياً؛ فيعطش ابنها وينفد الماء الذي في السقاء، ويتألم الرضيع من العطش فماذا تفعل؟ تقوم بمجهود بشري، نظرت إلى الوادي، جبال هنا وهناك فتجري إلى الجبل لعلها ترى شجرة عندها ماء أو أحداً قادماً معه ماء، فقصارى ما تفعله امرأة في هذه السن أن تجري بين الصفا والمروة سبع مرات هذا أكمل مجهود بشري، ولكن هذا المجهود البشري لم يأت بنتيجة، وبعد هذا التعب وجدت الماء عند قدمي وليدها.

إذن.. فصدق قولها: لن يضيعنا، وإلا فلو أنها وجدت الماء عند الصفا أو عند المروة لما كان لقولها: لن يضيعنا مدلول، ولكنها أخذت بالأسباب ولم تجد الماء، ثم وجدته عند قدمي إسماعيل.

زمزم.. وصدق التوكل على اللَّه

هنا يجب أيضاً أن ننبه إلى شيء آخر، وهو أن الحق سبحانه وتعالى حينما أبقى بعض الأشياء وجعلها نسكاً أراد أن يجعل الناس على ذكر من أصول مناسكهم، فمثلاً: السعي بين الصفا والمروة، عرفنا أن السيدة هاجر سعت بينهما لطلب الماء لوليدها إسماعيل عليهما السلام سبعة أشواط، ولم تجد، ثم وجدت ابنها ضرب برجله فخرجت زمزم.

إذن.. فزمزم تمثل شيئاً في العقيدة، بصرف النظر عن كونها: «مباركة، وأنها طعام طعم»[1]، السعي يمثل رمزية الأسباب وزمزم تمثل رمزية التوكل على المسبب حيث الرزق من حيث لا نحتسب.

إذن.. فلا بد للإنسان أمام ظروف الحياة أن يكون له حالين: حال يسير فيه مع الأسباب فيجد ويجتهد كما جدت السيدة هاجر عليها السلام في أنها ذهبت إلى الصفا فالمروة وكررت ذلك؛ ولكن هذا لم يأت لها بالماء، وجاء لها الماء من حيث لا تحتسب بضربة قدم من ابنها الصغير الضعيف؛ وعلى هذا فالمؤمن بين أمرين: بين أسباب تشغل جوارحه، وتوكل على اللَّه يشغل قلبه، ولتأكيد هذا المعنى، ليس أن نقول هذه زمزم التي كذا، التي جاء بها اللَّه من حيث لا تحتسب السيدة هاجر، وكذا وكذا بل ونشرب منها، واللَّه يجعل فيها الفائدة، لدرجة أن المحدثين في السيرة حدثونا أن أبا ذرّ حينما جاء من بلاده بعد أن سمع خبر بعثة الرسول ﷺ لم ينزل ضيفاً على أحد في مكة؛ ونزل ضيفاً في المسجد، وقد يسأل الناس ويقولون: لماذا مع أن كل واحد يأتي من البادية له واحد من الحضر؟ فكل واحد يأتي من البادية يكون له قريب أو صديق ينزل عليه؛ ولذلك كان زاهر بن حرام هو البدوي لرسول اللَّه ﷺ ـ يعني عندما ينزل رسول اللَّه الصحراء ينزل على سيدنا زاهر بن حرام ـ وكان يحبه جداً وله دعابات معه كثيرة جداً، لدرجة أنه رآه مرة في السوق، جاء من البادية ولم يذهب إلى رسول اللَّه، فرآه ﷺ في السوق فداعبه ﷺ دعابة تبين

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم [٢٤٧٣/ ١٣٢]، وروى عبد الرزاق في المصنف [٥/ ١١٨] عن طاووس عن أبيه قال: زمزم طعام طعم وشفاء سقم.

لنا منزلته عند رسول اللَّه، كان لونه أسمر قليلاً، فجاء رسول اللَّه من خلفه ـ كما نصنع نحن مع أحبابنا ـ ووضع يديه على كتفه وقال: من يشتري العبد؟ فعرف زاهر بن حرام صوت رسول اللَّه، فقال: إذن تجدني يا رسول اللَّه كاسداً. فقال له رسول اللَّه ﷺ: ولكنك عند اللَّه ربيح[١].

فالشاهد أن كل بدوي له حضري ينزل عليه والعكس صحيح، فسيدنا أبو ذرّ الغفاري لما جاء لم يذهب لمن ينزل عليه من الحضر، بل ذهب إلى الحرم. لماذا؟

نحن بحثنا في هذه العلة، ما دام له مكان ينزل فيه عند أهل مكة، لماذا لم يذهب إليه؟

قالوا: لأن المسألة في استقبال الرسول كانت البيوت مختلفة، بيوت آمنت به، وبيوت كفرت به، والبيت الواحد فيه من آمن وفيه من كفر، فقال: لو ذهب عند أحد فاحتمال أن يكون هذا الرجل الذي سأذهب عنده روحه ليست معه، أو روحه معه يشهد له، أو روحه ضده فيشهد ضده، فلا داعي لهذه ولا لهذه؛ وذهب إلى بيت اللَّه الحرام.

ومكث شهراً حتى جمع الأخبار، قال أبو ذرّ فواللَّه ما طعمت طعاماً إلا زمزم، وواللَّه لقد تكسرت عكن بطني، يعني: سمن حتى صارت بطنه طيات.

إذن.. فصدق أبو ذرّ رضي اللَّه تعالى عنه. وصدق رسول اللَّه ﷺ في أن قال: «زمزم طعام طعم وشفاء سقم»[٢].

❁❁❁

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير [٥/ ٢٧٤/ ٥٣١٠] وقال الهيثمي في مجمع الزوائد [٩/ ٣٦٩]: ورجاله موثقون.

(٢) سبق تخريجه.

obeikandl.com

إبتلاء إبراهيم في ولده

إذا كان اللّه تبارك وتعالى ابتلى إبراهيم عليه السلام بالنار في مطلع حياته؛ فقد ابتلاه في آخر أيامه بأن أمره بذبح ولده الوحيد. والإنسان في أول حياته تكون ذاتيته هي المسيطرة على نفسه ولكنه في أواخر حياته تكون ذاتية أولاده فوق ذاتيته. فقد اقتربت حياته من النهاية، ولذلك فهو يريد أن يعطي أولاده كل شيء، ويريد أن يحقق لهم ما لم يحققه لنفسه، وهكذا عندما كبر إبراهيم وصار شيخاً جاءه الابتلاء الثاني بأن يذبح ولده. ولنبين قوة هذا الابتلاء على نفس إبراهيم نقول: إن إبراهيم أصبح في سن كبيرة. وحسب عالم الأسباب من المشكوك فيه أن يرزقه بولد آخر، إذن.. فإسماعيل هو كل عزوة إبراهيم في الدنيا. وإذا بالأمر يصدر من اللّه ليس بأن يقتل إسماعيل، فربما كان ذلك هيناً على النفس بأن يعطي إبراهيم ولده لعدد من الناس يأخذونه بعيداً عنه يقتلونه. كان في ذلك نوع من الرحمة في القضاء، ولكن اللّه سبحانه وتعالى أمر إبراهيم بأن يأخذ ابنه ويذبحه بيده، ابتلاء كبير جاء عن طريق رؤيا لإبراهيم ورؤيا الأنبياء حق[1].

إبراهيم عليه السلام يعلم يقيناً أن الحق سبحانه وتعالى لا يطلب من خلقه إلا الاستسلام لقضائه؛ ولذلك إذا رأيت إنساناً طال عليه القضاء في أي شيء في مرض، في مصيبة، في مال، فاعلم أنه لم يرض بما وقع له، ولو أنه رضي لانتهى القضاء، فلا يرفع قضاء حتى تكون نفس من ابتلي به راضية، وما دام عدم الرضا موجوداً فالناس هم الذين يطيلون على أنفسهم أمد القضاء؛ لأنهم لا يرضون به، فإذا قال لك إنسان إنه راض بقضاء اللّه وأن القضاء لم يرفع عنه، فاعلم أنه يقول ذلك بلسانه ولا يرضى عنه بقلبه.

إبراهيم عليه السلام عرف هذه القضية من علم الملكوت، عرف أنه لا يرفع قضاء حتى يرضى به فامتثل لأمر اللّه، ولكن حب إبراهيم لابنه جعله لا يريد أن

---

(١) قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، راجع تفسير ابن كثير [٤/ ١٦]، وانظر البخاري [١٣٨]. وعن ابن عمر رضي اللّه تعالى عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة». رواه مسلم [٩/ ٢٢٦٥].

يجعل إسماعيل يمرّ بفترة سخط فلا يفوز برضا اللّه، ولذلك لم يأخذه رغماً عنه ويذبحه؛ لأن في هذه الحالة قد يكون إسماعيل غير راضٍ، فيحرم من الجزاء على هذا الابتلاء. فيقول إبراهيم عليه السلام لولده: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ وهكذا يريد إبراهيم لابنه أن يأخذ ثواب الاستسلام بقضاء اللّه، وهذا يرينا حب إبراهيم لابنه؛ لأنه لا يريد أن يحرمه في هذا الابتلاء من الثواب. ماذا يقول الابن؟ يقول له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] ولم يقل إسماعيل لأبيه يا أبت افعل ما تريد بل قال له: افعل ما تؤمر؛ حتى يأخذ الإبن ثواب عبودية الطاعة، ويمضي الابتلاء ويقول الحق: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات].

إذن.. فعندما صدق إبراهيم الرؤيا نزل الذبح العظيم من السماء ليفتدي به إسماعيل؛ بل وأكثر من ذلك نزلت معه البشارة بأن إبراهيم سيرزق بولد آخر مصداقاً لقول الحق: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١١٢].

هكذا لم تكن البشرى فقط من اللّه بإنجاء إسماعيل من الذبح؛ بل كانت أيضاً بأن إبراهيم سيرزق بولد ثان، وهذا الولد سيكون نبيّاً من الصالحين[(١)].

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره [٤/ ١٨ ـ ٢٠]: ذهب أهل الكتاب وجماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكى ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنّة، وما أظن ذلك متلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب وأخذ ذلك مُسَلماً من غير حجة، وهذا كتاب اللّه شاهد ومرشد لي أنه إسماعيل فإنه ذكر البشارة بغلام حليم في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات]، وذكر أنه الذبيح في قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾. ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات].

ويقول ابن القيم في «زاد المعاد في هدى خير العباد» الجزء الأول في فصل نسب الرسول ﷺ: وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بإنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس اللّه روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن اللّه أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره ـ وفي لفظ ـ وحيده، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غر أصحاب هذا القول: أن في التوراة التي بأيديهم: «اذبح ابنك إسحاق». قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم؛ لأنها تناقض قوله: «اذبح بكرك ووحيدك» ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم ويحتازوه دون العرب، ويأبى اللّه إلا أن يجعل فضله لأهله وكيف =

وهكذا يرينا الحق سبحانه وتعالى من أسرار ملكوت السماوات والأرض

= يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب؟ فقال تعالى عن الملائكة إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود]. فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب داخل في البشارة، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في لفظ واحد، وهذا ظاهر الكلام وسياقه.

ثم يقول: ويدل عليه أيضاً أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة الصافات قال: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات]. فهذه بشارة من الله تعالى على صبره على ما أمر به، وهذا ظاهر جداً في أن المبشر به غير الأول؛ بل هو كالنص فيه.

ثم يقول: وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة؛ ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها، كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه وإقامة لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبح بالشام ـ كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة.

وأيضاً فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليماً، لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه، ولما ذكر إسحاق سماه عليماً فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات] وهذا إسحاق بلا ريب؛ لأنه من امرأته وهي المبشرة به، وأما إسماعيل فمن السرية. وأيضاً فإنهما بُشرا به على الكبر واليأس من الولد وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك.

وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذه خليلاً، والخلة: منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس فيه فقد حصل المقصود، فنسخ الأمر وفدى الذبيح وصدق الخليل الرؤيا وحصل مراد الله. ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول؛ بل لم يحصل عند المولود الآخر من =

ويعرفنا نهاية الأشياء، وأن كل قضاء للّه له حكمة ولو لم نعرفها. فمن أصيب بمصيبة فما عليه إلا أن يرضى، وما دامت المصيبة لا دخل لحركة الإنسان فيها وإنما أجراها عليه اللّه، فلا بد أن نعلم أنه لا يوجد خالق يفسد ما خلق، ولا صانع يفسد ما صنع.

إذن.. فلا بد أن تكون هناك حكمة للخالق وإن لم نفهمها، وعلى ذلك فإن طريق الخلاص من أي نائبة من النوائب هو بالرضا، وما دام يوجد رضا حقيقي ينتهي كل شيء، ولكن الذي يحزننا أننا عندما نصاب بمصيبة لا نرضى، ونفتح باب الحزن ولو كنا حقيقة نعقل ونفكر لأغلقنا باب الحزن وفتحنا باب الرضا، ولكنّا قد علمنا أن ما أخذ منا فنحن معوضون بخير منه لو رضينا، ولذلك يقال: إن المصاب ليس من حدثت له مصيبة وإنما المصاب من حرم الثواب، فتكون النتيجة أننا فقدنا عزيزاً نحبه ثم لا نأخذ عليه ثواباً بالجنّة، ولو أنك كنت تحب هذا العزيز الذي فقدته، لكان لا بد أن تأخذ بسبب فقده الجنّة، تلك هي حقيقة القضاء في عالم الملكوت.

❁❁❁

= مزاحمة الخلق ما يقتضي الأمر بذبحه، وهذا في غاية الظهور.
وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل إبراهيم عليه السلام غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولد إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة، فأمر اللّه سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها في أرض مكة ليبرد عن سارة حرارة الغيرة، وهذا من رحمته ورأفته، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحاله؟ هذا مع رحمة اللّه لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية؟! بل الحكمة البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية، فحينئذ يرق قلب السيدة على ولدها وتتبدل قسوة الغيرة رحمة، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها، وأن اللّه لا يضيع بيت هذه وابنها منهم، ويرى عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد، آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواطئ أقدامها مناسك لعباده المؤمنين، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه، أن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص]، وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء واللّه ذو الفضل العظيم. ا.هـ [بتصرف يسير].

obeikandl.com

بركة البيت . . والحج المبرور

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران].

البركة أن يعطي الذي تتفاعل معه فوق ما كنت تنتظره. هذه هي البركة. فمثلاً يزرع مزارع فدان قمح، وفدان القمح مثلاً عادة يخرج عشرة أرادب. ولكن هذا الفدان أعطى أكثر مما هو متوقع منه؛ وفاق مثيله عند آخرين. فيقول لك: إن هذا ربنا مبارك له في رزقه.

مبارك له في رزقه يعني: أن رزقه يؤدي أشياء فوق المظنون أن تؤدى به.

لأن هذه البركة لها أسباب متعددة، فهناك بركة الرضا، وبركة أنه يمنع المصارف، وبركة أنه يمنع المصائب عن الإنسان.

فإذا ذهبت إلى هناك إلى بيت اللَّه الحرام، امتلأت نفسك خشية لربك وتواضعاً مع الآخرين، واستطعت أن تفهم عطاءات اللَّه لكل خلق اللَّه.

والأشياء التي كانت تورثك غروراً في حياتك انتهت منك؛ فإن كان لك طمع في الدنيا لم يبق لك طمع، وإن كان لك شراهة لم تبق لك شراهة، فتأتي هنا البركة.

وأيضاً: فإن الزمن هناك البركة فيه على قدر ما يعطيك من ثواب. كيف؟ الإنسان في بيئته مشاغله وأموره في الحياة آخذة منه كثيراً من حركته. هذا لون من البركة.

اللون الآخر: إن الإنسان الذي ذهب إلى مكان ليس فيه توطُّنه وليست فيه إمكانياته التي تعود عليها فهو يعيش عيشةً غير رتيبة. والعيشة غير الرتيبة تتطلب منه كثيراً من الحزم في تصريف الأمور.

ولذلك نجد الإنسان في بيته ربما ضاق بأن يبيت معه واحدٌ في حجرة، أو يبيت معه اثنان، ولكننا نلاحظ في هذه الأمكنة أن صدور الناس تتسع للناس؛ إذن فالأماكن ليست هي التي تتسع، وإنما الصدور هي التي تتسع.

فنجد أن أناساً جلسوا في مكان: عشرة في حجرة. كيف يقضون حاجتهم في

هذه الحجرة، وكيف يضعون فيها أمتعتهم، وكيف ينامون، وكيف يرتاحون. ونجد أن الماء الذي لا يكفي إنساناً في رتابة حياته في بلده يكفيهم قليل منه، والطعام كذلك.

كل ذلك لون من البركة فيما آتاه اللَّه للإنسان، وهذا إذا نظرنا إلى البركة في ميعادها الموقوت بهذا المكان، ولكنك إذا عدَّيت البركة إلى غيرها من الأمكنة فإنك ستذهب إنساناً آخر بعد الحج، إنسان حجه يجب أن يكون مبروراً والحج المبرور لا إثم فيه.

إذن . . فقد ضمن أن فترة من الزمن مرت به في عبادة، لا إثم فيها ولا فجور ولا فسوق، تلك هي بركة، وإلا فالزمان في غيره صالحٌ لأن يكون فيه هذا وأن يكون فيه هذا، إنما الإنسان في بيت اللَّه يستحي أن يمرَّ عليه خاطر السوء، ليس أن يفعل خاطر السوء، فتكون بركة؛ لأن الزمان الذي يعيش فيه بارك اللَّه فيه فلم يكن فيه إلا الخير ولم يكن فيه إلا الحسنة ولم يكن فيه إلا أن تُفكر في مصالح الناس، ولا يكون فيه أن تغتاب أحداً . . كل ذلك لون من البركة.

فإذا ما سمعت قول النبي ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنّة»[1]، فهذه بركة واسعة جداً، بركة امتدت من الدنيا إلى الآخرة.

كذلك إذا رأيت أن الإنسان في الحج المبرور تكون حياته بعد الحج خيراً من حياته قبل الحج، فالأشياء التي كان يتساهل فيها كاللمم مثلاً ربما يمنع نفسه عنها فتكون بركة البيت قد امتدت إلى خارج هذا المكان.

وأيضاً فإن الحق سبحانه وتعالى يحب من الإنسان أن يعيش منهجه، ولا تستطيع أن تلحظ عيشة الإنسان التامة وفق منهج اللَّه إلا في هذا المكان، فإن الإنسان يكون خارجاً من وقت الظهر ـ مثلاً ـ ويذهب إلى راحته وتنتظر أذنه أذان الوقت الذي بعده وعندما يؤذن تجد الكل يهرول في الذهاب للمسجد، فوقتك دائماً مشغول بربك، ليبرهن للإنسان أنه ليس المكان الذي يعطيك حرصك على أن تؤدي المنهج كما يريده اللَّه، ولكن انشغالك الدائم بربك وحرصك على تأدية ما افترضه عليك هو الذي يعطيك، ولذلك يقول بعض الصالحين: إذا ألزمت نفسك خارج

---

(١) رواه أحمد في المسند [٢/ ٢٤٦] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو يعلى في مسنده [٦٦٦٠] والطبراني في المعجم الكبير [١١/ ١٤٦/ ١١٤٢٩] وقال الهيثمي في المجمع [٣/ ٢٠٨]: وفيه يحيى بن صالح الأبلي قال العقيلي: روى عنه يحيى بن بكير مناكير. وله شاهد من حديث جابر بن أحمد ولذا حسنه الشيخ الألباني.

البيت بما تلزم به نفسك وأنت في البيت ترى من الخير هناك ما رأيته هنا.

إذن . . فالمسألة مسألة إلزام؛ لأن الإنسان في بيت اللَّه يستحي أن يفكر في معصية، يستحي أن يمرَّ عليه الوقت ولا يصلي، يستحي أن لا يصلي إلا في جماعة وفي المسجد فهات إنسان في لندن وبعد ذلك قاعد مترقب الأذان وعندما يسمع الأذان يجري ويهرول إلى المسجد ويؤدي الصلاة، ولا يشغل نفسه إلا بطاعة اللَّه، فإنه أيضاً يرى الخير.

فإذا ما كان الإنسان قد أخذ دُرْبةً على الخير في أن يعيش منهج اللَّه دائماً ربما لزمته هذه العادة إن عاد إلى بلده؛ لأنه بعد ما أدرك الحلاوة التي أدركها هنا يحاول جاهداً أن يُطبقها في بلده، فيكون هذا لوناً من البركة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]. العالمين جمع عالم، والعالم: ما سوى اللَّه، وما سوى اللَّه: أجناس متعددة، هذه الأجناس المتعددة منها ما هو غير مُكلف لأنه مطبوع على الخير ومطبوع على إطاعة الأمر فهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾: [التحريم: ٦] وهم الجماد، والحيوان، والملائكة، أي: كل شيء ما عدا الإنسان والجان.

القوم الذين يذهبون إلى الحج تختلف أجناسهم، وتختلف ألسنتهم، وتختلف ألوانهم. فإذا ما التقى هؤلاء جميعاً ووجدوا أن جامع ألسنتهم نشيد واحد: «لبيك اللَّهم لبيك»، هتاف واحد، وفعل واحد هو: طواف، هو سعي، هو كذا هو كذا هو رمي جمار، هو وقوف بعرفة، ارتبط الناس جميعاً برباط واحد، يتغلب على فوارق أزمنتهم، وفوارق أمكنتهم، وفوارق حضاراتهم، ويشهد المسلم أنه لم يعد مؤمناً وحده بجنسه ولا بلونه، بل هناك أجناس متعددة تعبد ربنا سبحانه وتعالى، أجناس تؤمن بمن آمن به، أجناس متعددة يجمعهم الخير، كل هذا يكون للعالمين.

وهنا يكون: ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٩٧].

كلمة: ﴿ءَايَٰتٌۢ﴾ جمع آية: و﴿بَيِّنَٰتٌ﴾ جمع بينة، يعني: كل آية بينة: والجمع: ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾.

لكن يلاحظ من الأداء القرآني عندما قال: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أراد أن يبينها لنا؛ لأن قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ وصف مجمل.

ما هي الآيات البينات؟ لم يجيء القرآن الكريم فيها إلا بمقام إبراهيم عليه السلام: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧] فقط.

كأن اللَّه سبحانه يريد أن يلفتنا إلى شيء: هذا الشيء أن لا تنظر إلى وحدة الشيء؛ ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ هو الحجر الذي كان يقوم عليه وهو يرفع قواعد البيت.

إذن.. فالآيات البينات بُيِّنت بمفرد، مع أن آيات بينات جمع، فالمتوقع أن يقول: مقام إبراهيم وكذا وكذا وكذا..

ولكنه قال: ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾، وقال: ﴿مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

يلفتنا الحق في هذا إلى أنك لا تنظر إلى وحدة النعمة، ولكن انظر إلى مكونات هذه النعمة. فلو نظرت إلى مكونات النعمة لوجدت في كل مُفرد من النعم نعم، فأنت مثلاً إذا نظرت إلى التفاحة على أنها نعمة، انظر فيها إلى العناصر التي ستعطيك، تُعطيك الرائحة، تعطيك الفسفور، تعطيك الصوديوم، أشياء كثيرة مما يتكون منها جسدك.

إذن.. فالحق سبحانه وتعالى حينما يذكر نعمة من النعم يقول: إياك أن تفهم على أنها نعمة واحدة، ولكن دقِّق النظر وحققه تجد في طي هذه النعمة الواحدة نعماً كثيرة.

ولذلك تجد الحق تعالى يقول: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨].

والعد يقتضي تكرار واحدة؛ تعد الشيء يعني واحدة مكررة، فكان بمقياسنا نحن البشر نقول: وإن تعدوا نعم اللَّه.

ولكن قال سبحانه: ﴿تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ ...﴾ كيف نعد نعمة واحدة؟ والعدُّ: كما قلنا تكرار وحدة تُحسب: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦.... إلخ.

وهو سبحانه وتعالى لم يقل: «نعم اللَّه»، حتى تكون أشياء مكررة بل قال: ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ فلا تنظر إلى نعمة اللَّه على أنها واحدة، ولكن انظر إلى ما في طيِّها من النعم.

وطيها من النعم هو ما كشفه لنا العلم الحديث من تحليل الشيء الواحد إلى العناصر التي يتكون منها.

وهذا ما وقف عليه عِلْم المخلوق في تكوينه، ومن يدري أن كل عنصر من هذه العناصر بعد ذلك سيكون فيه عناصر عِدة متعددة، فإن ارتقت آليات الأشياء في ضبط المقاييس والموازين فستخرج لنا أشياء كثيرة إن شاء اللَّه تعالى وقدر.

إذن.. فقول الحق: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧] هي مفردة وهو شيء واحد، وهو حجر قام عليه إبراهيم؛ ولكنك لو تفهمته فستجد آيات واضحات في هذا الواحد.. كيف؟

الحق سبحانه وتعالى حين يُكلف عبده بتكليف: يطلب منه أن يؤدي التكليف على أتمّ وجه وأكمله، لا أن يؤديه كما نقول في حياتنا: «كمالة عدد»، ولا أن يؤديه كما نقول فقط: «إبراء للذمة».

ولذلك فإن الناس من أهل الحكمة يقولون:

إن أردت أن تعمل لغيرك عملاً فقدر هذا العمل يعمل لك، وكما تحب أن يعمل لك فاعمل أنت أيضاً له.

فإن أنت أتقنت ما بيدك للغير ألهم اللَّه الغير أن يتقن ما بيده لك.

إذن . . فالحق سبحانه وتعالى يريد من كل مكلف بعمل أن يتقنه.

ولذلك نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام وضع القيمة الجمالية في الكون، في قوله: «إن اللَّه يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقِنَهُ»(١).

فما دام سيتقن عمله فاللَّه سبحانه وتعالى سيُلهم الغير أن يتقن له.

إذن . . ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧]: إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال اللَّه سبحانه وتعالى عنه في القرآن العظيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] وقوله سبحانه: ﴿أُمَّةً﴾ لأن خصال الخير لم يستول عليها أحد كلها، ولكن هذا فيه خصلة وهذا فيه خصلة . . ، خصال الخير موزعة، أما إبراهيم عليه السلام فكان أُمة في الخير، يعني: فيه هذه الخصلة، وهذه الخصلة، وهذه الخصلة، يعني جُمع فيه من الخير ما يُجمَّع في أُمَّة.

وأراد اللَّه سبحانه وتعالى أن يعطينا لماذا جعله: ﴿أُمَّةً﴾ ولماذا جعله: ﴿إِمَامًا﴾ فقال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

قوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ يعني: أدى ما أمره اللَّه به على أحسن ما يكون من وجوه الكمال. و«مُقام» بضم الميم ـ يعني: مكان إقامة، و«مَقام» بفتح الميم ـ يعني: مكان قيام.

فالذي يرفع القواعد لا يرفعها وهو قاعد، بل يقوم حتى يبني ويعلي، فحين يطلب اللَّه من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت، واللَّه لا يكلف نفساً إلا ما في استطاعتها ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧] و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

---

(١) رواه أبو يعلى في المسند [٤٣٨٦] وقال محققه: إسناده لين، والطبراني في المعجم الأوسط [٨٩٧] عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها.

إذن . . فالتكليف على قدر ما أتى من الأسباب وعلى قدر الوسع، فحين يطلب اللَّه تعالى من إبراهيم عليه السلام أن يرفع القواعد هو وإسماعيل عليه السلام، كان يكفي في أداء التكليف أن إبراهيم يرفع البيت على أقصى ما تطول يده، ويكون قد أدى ما أمره اللَّه تعالى به.

لكن إبراهيم عليه السلام لم يكتف بهذا، وإنما أراد أن يرفع القواعد إلى أعلى مما تصل إليه يده، فماذا عمل؟

بالطبع لم يكن يوجد كما نعمل الآن سقالات، فأتى بهذا الحجر ونقله في هذا المكان ووقف عليه، وإسماعيل يناوله وهو يبني ويرفع البناء.

فإذا قست ارتفاع الحجر يكون هو الارتفاع الزائد في ارتفاع البيت؛ لأنه وقف على هذا الحجر.

فإبراهيم عليه السلام أراد أن يؤدي ما أمره اللَّه تعالى به في رَفع قواعد البيت ليس كما يستطيعه بذاته، بل بالحيلة، والاحتيال، فأتى بالحجر ووضعه في هذا المكان ليعلى البناء، ثم نقله في جانب آخر ثم صعد عليه كذلك ليعلى البناء، وهكذا.

ولا بد أن يكون الحجر في طاقة اثنين؛ يحمله هو وإسماعيل.

فلما لاحظنا الحجر، وجدنا أن به قدمين، الناس قالوا: إنه لما كان يقوم على الحجر فمكان القدمين عَلَّم وعليه هذا كلام يُقال ليس له دليل!!

إنما عندما يبحث العقل هذه المسألة يجد أن إسماعيل يساعد أباه، وأبوه حمل الحجر ووضعه هنا ليعلي الكعبة على قدر قيمة الحجر والأقرب إلى العقل أن إبراهيم احتال لنفسه في أنه عمل لقدميه مكاناً. لكل قدم مكان، حتى إذا أخذ الحجر ووقف عليه، تتمكن قدماه من المكان الذي أعده لهما، فلا يميل الحجر.

إذن احتال كم احتيال؟

احتال أولاً في أن يزيد في علو البيت قدر قيمة الحجر ، واحتال لنفسه حتى لا تختل حركته بأن عمل لقدميه هذين المكانين.

فهذه آيات بينات تدلنا على أن كل تكليف من اللَّه للخلق يجب أن يؤدى بكماله وبتمامه؛ لأن كل إنسان لو أدى ما كُلف به بكماله وبتمامه أشاع نغمةً في الوجود، وهذه النغمة: كل ما يرى الإنسان شيء جيد متقن يقول: اللَّه. اللَّه، يرى هذه فيقول: اللَّه، ويرى هذه فيقول: اللَّه.

فالذي لا يتقن عمله يكون قد حرم الوجود من تعليق فطري على أن كل جمال

تراه عينك لا يُعقب عليه إلا بكلمة: «اللَّه»، فكأن اللَّه هو مصدر الجمال، وهو مقيم الجمال، وهو مُلهم الجمال.

تلك مسألة ظهرت في بناء الكعبة ليس فقط لتظهر في بناء الكعبة، بل لتكون أُسوة، أسوة لكل واحد يكلفه اللَّه تكليفاً أن يُحاول أن يؤدي التكليف لا بقدر الاستطاعة الذاتية فقط ولكن بقدر الاستطاعة والحيلة للزيادة من جنس التكليف الذي أمر اللَّه تعالى به.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] لماذا لا نعتبرها أيضاً داخلة في الآيات التي جاءت في مقام إبراهيم؟ وهنا قضية شرعية:

الذي يحدث فيه لبس عند بعض المفكرين ـ أو بعض المشككين، أو بعض الذين يلحدون في دين اللَّه ـ يقولون: من دخله كان آمنا؛ وقد دخله أُناس فلم يؤمنوا.

أهيجوا أيام القرامطة، ودخل ابن قُرمط، وأخذ يقتل في الموجودين، وأهيجوا في أيام أخرى. . ولم يؤمنوا، مع أن ربنا سبحانه وتعالى قال: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾.

فنقول لهم: أنتم أخذتموها على أنها قضية كونية، يعني: أن اللَّه حكم بأن من يدخله لا بد أن يكون آمناً! لا؛ بل هي قضية شرعية، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ يعني: من دخله فأمنوه. يعني: أمر تكليفي، وما دام أمراً تكليفياً فيكون عُرضة أن يُطاع وعُرضة أن يُعصى، فالذي أطاع أَمَّنَ من دخله، ومن عصى لم يُؤَمِّنْ من دخله.

فإذا ما حدث في الكعبة شيء إياك أن تقول إن ذلك يناقض القضية؛ لأنك لا تعتبرها قضية كونية، ولكنها قضية تشريعية.

فيجب أن تفطن إلى أن قول اللَّه: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ قضية شرعية، مطلوب منك أن تُؤَمِّنْ من دخله، فإن كنت محباً للَّه ومطيعاً لمنهجه فإياك أن تُهيج إنساناً دخله. ولكن إن أهاجه فيكون عاصياً مثل القضية الأخرى التي لا يفهمها بعض الناس على وجهها الصحيح، وهي قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ [النور: ٢٦] فيقول: نحن نرى رجلاً طيباً يتزوج امرأة خبيثة، ونرى رجلاً خبيثاً يتزوج امرأة طيبة، وهذا مناقض لقول اللَّه تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾.

فنقول: إن هذه ليست قضية كونية، وبالتالي ليس معناها أنه لا بد أن لا يتزوج الطيب إلا الطيبة، والخبيث لا يتزوج إلا خبيثة. بالطبع لا. . فهي قضية شرعية،

obeikandl.com

يعني اختاروا ـ أو زوجوا ـ الطيبين للطيبات وزوجوا الخبيثين للخبيثات؛ ليضمن في الأسرة التكافؤ فلا يوجد في الأسرة أحد يزهو بشيء على الآخر.

إذن.. فقضية الطيبين للطيبات والخبيثين للخبيثات قضية ليست كونية بمعنى أنك لا ترى إلا طيباً مع طيبة ولا خبيثاً إلا مع خبيثة. بل هي كما قلنا قضية شرعية، إن أحسنا استقبال منهج اللَّه، وأطعنا اللَّه تعالى فيما أمر، فإذا ما جاء إلينا الطيب نزوجه الطيبة، أما الخبيث فلا نزوجه الطيبة أبداً.

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا في الحج أنه لا جدال والجدال: أوليَّة المراء، وهو باللسان، لم يتعد إلى الجوارح، لكن أمنوه يعني: لا تعتدوا أي: بجوارحكم لإيذائه.

ولذلك قالوا: إذا لقيت من قتل لك قتيلاً وأنت وليه هناك فإياك أن تقول هذا كذا وتمسك به، بل ضيق عليه حتى يخرج، فإن خرج حلّ لك ذلك، حتى تنفذ قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾.

إذن.. فهذه القضية يجب أن نعيها جيداً وأن يكون حرصنا عليها الآن أكثر من ذي قبل لأن الزحام الآن شديد والإيمان في النفوس قد تأثر بالأحوال الاقتصادية والاجتماعية والنفسية التي تعيشها الأمة الآن؛ هذا إلى جانب أن الناس الذين جاءوا من أقصى الأرض مختلفي الأمزجة، مختلفي الألسنة مختلفي الألوان، مختلفي المقامات، كل واحد له طبع، فلو لم يكن كل واحد منا لَيِّن الجانب لكانت المسألة فوضى، ولأتعب بعضنا البعض، فمن أجل ذلك جاء النهي: إياك أن تجادل أو تفعل أي شيء في الحج لأن كل إنسان يعيش في هذا المكان على غير رتابة حياته، وما دام يعيش على غير رتابة حياته فيجب أن تسعني أنت وقت ضيقي، وأنا أسعك وقت ضيقك، حتى تسير الأمور. ولذلك تجد أن هذا الحج إما أن يورث حُباً وإما أن يورث عداوة. فالذين لا يتمسكون بمبدأ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] ويطلقون لأنفسهم العنان؛ لا يتفقون مع أحد، ويتعبون الآخرين، حتى أنهم يكرهون بعض، وتكون عداوة لا نهاية لها، أما الذين يتطامنون معاً تطامناً، ويعيشون في ظلال الطاعة فيظلون أحباباً طول العمر؛ لأنهم وَسِعُوا نفسهم في أيام الضيق وأيام تحكم الإقامة في مكان لم يعتادوا فيه الإقامة، فإذا كان هذا هو المطلوب، فلا بد أن نُحافظ على أمن من في الحرم ونُؤَمِّنْ من دخله.

وعلى هذا فلا بد أن يكون هناك أناس مأمورون بأن يُؤمنوا كل من دخله امتثالاً لقول الحق سبحانه: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ أي: ومن دخل البيت فأمنوه.

والمخاطب بـ: «أمنوه» لا بد أن تكون جماعة يُلْحَظُ فيها أن تكون لها القوة أن تؤمن من دخله، فلا يكون حُكْماً فردياً.

فالذي يُؤَمِّن هي الهيئة التي يكون لها من القوة ما تستطيع بهذه القوة أن تقضي على كل مشاغب يريد أن يعكر أمن هذا المكان، فليست قضية فردية لي ولك أنت، بل هي قضية لأُناس مخاطبين بها، وهذا يتطلب أن يكون لأمر الكعبة أُناس يقفون موقف المراقب، كل من يُخِلُّ بأمن هذه البلاد لا بد أن نقف في طريقه ونؤمن البلاد.

فالذين يحاولون أن يجعلوا التأمين فردياً نقول لهم: هذا في الحكم الفردي للفرد، لكن في الحكم الجماعي لا بد أن يكون له ردع جماعي، هذا الردع الجماعي أن تكون المسألة في يد جماعة أو هيئة تستطيع بما أوتيت من قوة أن تقف أمام كل من يُعكر أمن هذه البلاد.

قد يحدث من بعض الحجاج أنهم يريدون أن يروجوا لمذهبهم، أو أن يشيعوا فوضى أو أن يشيعوا فتنة، أو أن يقسموا موجوداً، أو أن يرفعوا نفوسهم فوق مستويات التقسيم؛ نقول لهم: لا بد أن يضرب على أيديكم حتى يأمن من في الحرم على نفسه.

openkandl.com

ومن بركات
الحرم . . تحريم القتال فيه

الحق سبحانه وتعالى حرم القتال في الحرم، وحرم القتال أيضاً في أزمان معلومة لأن كل حدث من الأحداث لا بد له من أمرين: زمان ومكان.

فكل فعل من الأفعال لا بد له من زمان ولا بد له من مكان.

فمثلاً: أنا سآكل الساعة كذا، في مكان كذا.

وكل حدث يتطلب عنصرين: عنصر الزمان وعنصر المكان.

الحق سبحانه وتعالى إنما أراد بمنهجه الإيماني أن تشيع حياة الأمن في الناس والاطمئنان. فالحركة الهادئة المتعاضدة لا المتعاندة لا بد أن يوجد فيها سلام، لكن أغيار النفس البشرية قد تدعو إلى الخلاف. فأيضاً اللَّه قدر هذه الأغيار. لماذا؟ لأنه قد يؤدي الخلاف إلى تشاحن بين أُناس وأُناس.

فلم يمنع التشاحن، ولكن جاء في المنهج الإيماني إذا تشاحن اثنان فلا بد أن توجد طائفة ثالثة للصلح بينهما، وذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] أي: نفصل بينهم، نرى الباغية فنردها عن بغيها.

فاللَّه سبحانه وتعالى قدر أسباب الخلاف بينهما، ولم يخرجهم بالخلاف عن كونهم مؤمنين، لأن أغيار البشر هكذا.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] فقد يستشري الشر، والطائفة الثالثة قد لا تكون؛ أو أضعف من أن تتصدى للبغاة. . هنا يأتي أمر اللَّه فينصر الحق ويزهق الباطل.

فالحرب فعل بين خصمين، فنمنع الطرفين من هذا الفعل: الظرف الزماني والظرف المكاني. فيأتي اللَّه لزمن فيُحرِّم فيه القتال. ويأتي اللَّه تعالى لمكان فيحرم فيه القتال.

فإذا حرم سبحانه وتعالى القتال في زمن، يكون القتال في أي مكان محرم في

ذلك الزمن. وإذا حرمه تعالى في مكان، يكون القتال في أي زمان محرم لأن كل فعل لا بد له من زمان ومكان. فاللَّه تعالى حرم القتال في مكان ـ كالحرم مثلاً ـ فيكون هذا التحريم منصب على أي زمن من الأزمنة.

إذن.. المكان أخذ الزمان معه في التحريم. وإذا حرم اللَّه سبحانه وتعالى القتال في زمان ـ كالأشهر الحُرم ـ فيكون حراماً في أي مكان من العالم في تلك الأشهر.

إذن.. مرَّة الزمان يشيد المكان، ومرة المكان يشيد الزمان.

وذلك لأن القوة الثالثة قد لا توجد، ويوجد تعال وعناد بين المتخاصمين، فكل واحد تأخذه العزة بالإثم أن يتنازل للآخر، فشاء اللَّه أن يتدخل وكأنه سبحانه أراد أن يقول: يا أيها الناس هذا المكان ليس فيه قتال.

فإذا جاء القتال في هذا المكان نقول: إن ربنا سبحانه وتعالى منع فيه القتال.

إذن.. فقد وجدنا ضرورة من تشريع اللَّه نداري فيها كرامتنا حتى لا نهون أمام بعضنا البعض.

فيقول البعض: لو لم يكن اللَّه تعالى منع القتال لكنت قتلته، ولو لم يأت هذا الشهر أنا كنت فعلت وفعلت، لكن هذا أمر اللَّه سبحانه وتعالى.

ثم بعد ذلك قد يحلو لهم أمن السلام، قد يحلو لهم اطمئنان الهدوء، فبهذا يكون اللَّه قد استل منهم الغضب، ولكن بكرامة الاثنين. لم تهن واحدة أمام الأخرى، ولا تخاذلت ولا ضعفت ولا تذللت، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى هو الذي أمر بمنع القتال في هذا المكان أو في هذا الزمان، وبعد ذلك الناس تذوق لذة السلام ولذة الأمن فتنتهي المشكلة.

إذن.. الحق سبحانه وتعالى جعل فض النزاع بطريقتين:

إما من طريق طائفة ثالثة من المكلفين؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات].

فإن لم توجد الطائفة الثالثة تدخل اللَّه في الزمان مرة وتدخل في المكان مرة.

لكن أتَّتَّخَذُ هذه ذريعة في أن يأتي واحد يقاتلني في الشهر الحرام ثم أقول إن اللَّه أمرني بأن لا أقاتله؟ لا؛ بل قاتله حتى لا يستغل طاعتك ويتمادى هو في المعصية.

obeikandl.com

فإذا قاتلني عند المسجد الحرام فهل أقول المسجد الحرام لا قتال فيه؟ لا..

قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١] كان المنطق يقتضي: «اقتلوهم»، لماذا العدول عن «اقتلوهم» إلى: ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾؟

لأن مجرد التفكير في أن ينشأ قتال من طرف في الحرم وإهاجة، فلا تقول سأقاتله؛ لأنك إذا قاتلته فإن للمقاتلة أحكام، ومن هذه الأحكام: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. ولكن في هذا المكان عندما يقاتلني فلا أقاتله، بل أقتله، فمجرد أن يريد القتال فأنا أقتله، لا أقاتله.

والفرق بين: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ الذي يتحكم في الأمر نظام المقاتلة، ونظام المقاتلة محكوم في الإسلام يقول اللَّه تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾. فإذا جاءت جماعة إلى الحرم وقاتلونا في الحرم، فهل نقاتلهم؟ لا، لأنهم بمجرد فعلهم هذا في الحرم يصدق فيهم قول اللَّه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] أي كأن تأخذ قانون المقاتلة؛ ولكن خذ هنا قانون القتل لأن المسألة ليست مقاتلة، المقاتلة تكون خارج الحرم أما في الحرم، فلا، بمجرد أن يقاتلوكم فإياكم أن تقولوا سنقاتلهم بحيث إن جنحوا للسلم نجنح لها.. لا، ليس هنا جنوح للسلم، مجرد المقاتلة توجب: ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ وعلى هذا الأساس يجب أن يظل لقضية التشريع في قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ لا بد من حراس وهؤلاء الحراس يكونون مسؤولين، ويكون لهم من القوة ما يستطيعون أن يردوا أي عبث، أو أي استهتار، أو أي خروج عن الأمن.

والذي يتعرض له الأمن اليوم وكما نعرف جميعاً، يوجب على كل مؤمن أن يعين الأمة التي جعلها اللَّه سبحانه وتعالى قائمة على أمر صيانة هذا البيت وخدمته من أن يعاونوهم على هذه المهمة الشرعية، في أن يمنعوا أي شغب، وكل مؤمن يكون هناك لا بد أن يعاون هذه الأمة التي كلفها اللَّه أن تحافظ على أمن هذه الأمكنة، من أن يعينها بما أوتي من قوة.

البيت مثابة للناس

يقول الحق تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] فجاء بالأمن هنا أيضاً ومثابة للناس: أي: يثوبون إليه، يعني: يرجعون إلى اللَّه فسيظل إلى أن يشاء اللَّه في مناسك اللَّه، وفي تشريعات اللَّه وسيظل ما شاء اللَّه في قلب كل مؤمن حجه وزاره، حتى تألف نفسه الطاعة، وإذا ما ألفت نفسه الطاعة.. ولذلك حتى عندنا نحن في بلادنا بعض عوام الناس عندما يعمل أي واحد عملاً فيه مخالفة ولو من باب اللمم ويكون قد حج فالكل يقول له: يا حاج عيب، يعني: معناها إنك إن ضعُف غيرك وصنع هذا، فلا يصح لك وقد توجت أركانك بالإتمام والسلام وذهبت إلى هناك معلناً تمام النعمة عليك فهل لك أن تفعل هذا العمل كغيرك[1]؟.

(١) قال الحافظ في الفتح: ﴿ٱلْبَيْتَ﴾ اسم غالب للكعبة، كالنجم للثريا. وقوله تعالى: ﴿مَثَابَةً﴾ أي: مرجعاً للحجاج والعمار يتفرقون عنه ثم يعودون إليه.
وقوله تعالى: ﴿وَأَمْنًا﴾ أي: موضع أمن، وهو كقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧]، والمراد ترك القتال فيه.

obeikandl.com

السعي بين الصفا والمروة

الحق سبحانه وتعالى يعطينا في شهود هذه المناسك ـ مناسك الحج ـ أشياء تُعطي قضايا للكون، ليس فقط قضايا للنسك، فمثلاً بعدما نؤدي الطواف نسعى، والسعي بين شيئين، سعى فلان بين فلان وفلان، وسعيت بين فلان وفلان بالخير، وسعى فلان بين فلان وفلان بالشر.

هناك مكانان ـ كما رآها من ذهب إلى هناك، والذي لم يذهب نسأل اللَّه أن يعينه على الزيارة وأداء النسك ـ وهما: الصفا والمروة، جبلان، أو ربوتان، أو مكانان مرتفعان.

ومن تمام النسك أننا بعد أن نطوف نسعى، نسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط، مثل سبعة أشواط الطواف.

الحق سبحانه وتعالى يريد بإحياء هذا النسك أن يستبقي قضية إيمانية. وهذه القضية الإيمانية هو أن اللَّه خلق الخلق، وقبل أن يخلق الإنسان خلق له الوجود الذي يحيط به وأمد هذا الوجود بكل مقومات الحياة، وترك في الكون أسباباً، من أخذ بهذه الأسباب أخذ بمسبباتهما، سواء كان طائعاً أو عاصياً، مؤمناً أو كافراً.

فإن الكافر الذي يأخذ أسباب الحياة ويتقنها تعطيه، مثلاً لو عنده أرض، فيحرثها بإتقان، ويأتي بالبذور الجيدة، ويرويها في مواعيدها المنضبطة، ويرعاها حق رعايتها، فتعطى له. هذا هو عالم الأسباب.

عالم الأسباب هو ما مد اللَّه تبارك وتعالى به يده إلى خلقه فإن أخذوا بها وصلوا إلى المسببات. وفوق هذه الأسباب أشياء، هذه الأشياء من المسبب مباشرة بدون أسباب.

كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] اللَّه يرزق من يشاء بغير حساب، يعني: ليست محسوبة عنده. إنما هو خلق أسباباً تأتي لك أيضاً بالرزق، فإن أحسنت الأخذ بالأسباب تأخذ على قدر إحسانك، وإن لم تحسنها فلا تأخذ. لكن إياك أن تفهم أن الأسباب هي التي تعطي بذاتها؛ لأن فوق الأسباب مسبباً خلقها، هذا المسبب يلفتك إليه دائماً، فالأسباب أحياناً تأخذ بها،

obeikandl.com

ولا تؤدي إلى نتيجة، ذلك حتى تفهم أن الأسباب ليست فاعلة بذاتها، وحتى لا تغتر بالأسباب.

بل عليك أن تأخذ بالأسباب، ثم لك قلب يتوكل على المسبب سبحانه وتعالى. فمثلاً رجل يزرع الزرعة ويغترّ بها كأن يقول: إن الأرض خصبة والتقاوى من أرقى الأنواع، وسوف أتعهدها بالري ومقاومة الآفات والحشرات و... إلخ. ويتفنن في إتقانه للأسباب، ثم تأتي للزرعة آفة من الآفات فتقضي عليها، كأن يمر عليها إعصار فيهلكها؛ لأن الله تعالى يريد أن نشتغل بالأسباب بجوارحنا، ولكن نتوكل عليه سبحانه بقلوبنا.

فالأسباب فعل الجوارح، يدك تعمل، رجلك تسعى، ثم النتيجة تأتي وفق قدر الله ومشيئته؛ لأن الله سبحانه يستطيع أن يجعلها لا تؤتي ثمرتها، واقرأ قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [القلم] أي: لم يقولوا: إن شاء الله، لأن الله لم يكن ببالهم، بل في بالهم أن البستان أتى بالثمر والثمر سنقطفه في الصباح، ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [القلم]. فذهبوا فلم يجدوا شيئاً.

إذن.. فهناك فرق بين عطاء الله بالأسباب وبين عطائه بذاته وهو المسبب.

ومراراً سمعنا إن دولة كذا عندها قمح ستُطعمُ به الدنيا، ثم لما حان النضج جاءتها بعض الأشياء الخارجة عن إرادتها فأضاعتها، وأكلت ورزقت من غيرها. إذن.. ليس بالأسباب وحدها يُرزق الإنسان.

الله تبارك وتعالى أراد في الحج أن يجعلها عظة عامة لكل خلق الله، عظة مشهودة، عظة مكررة، فنبههم إلى قضية السيدة هاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام، حينما جاء إبراهيم عليه السلام بهما إلى هذا المكان، الذي هو: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾، وما دام: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ فليس فيه المقوم الأساسي للحياة الذي هو الماء! وهي مسألة ليست طبيعيّة لكن الله أراد أن يلفتنا بإبراهيم وبامرأة إبراهيم مع ابن إبراهيم عليهم السلام إلى قضية كونية، هذه القضية الكونية لا بد أن يتأصل الإيمان فيها في النفس، فمثلاً يأتي بالمرأة وابنها الرضيع ويتركهم في مكان ليس به ماء، وهذا هو المقوم الأول، الهواء فقط هو الذي عندهم، وتنقل إلينا كتب التاريخ أنها قالت له: آلله أنزلك هذا المنزل؟!

لأنها ليست متصورة أن إبراهيم يتركها هي ووليدها في هذا المكان، وتعلم أن

إبراهيم لن يصدر عن هوى، ولا يصدر إلا عن حكم من اللَّه، فقالت له: آللَّه الذي أنزلك هذا المنزل أم أنت الذي أنزلتنا به؟ فقال لها: اللَّه الذي أنزلني، فردت نفسها إلى قضية إيمانية، فقالت: ما دام اللَّه الذي قال فلن يسلمنا ولن يضيعنا[١].

فهذه هي القضية الإيمانية الأولى التي يجب أن يؤوب الحاج فيها من هذا المكان وهي في ذاته: ما دام استنفدت أسبابك، فاللَّه المسبب هو المتصرف. فما دام اللَّه هو الذي أنزلني في هذا المكان، فلن يضيعني.

بالطبع عندما يعطش رضيعها وتريد أن تسقيه، فماذا تصنع؟ لا بد وأن تتلفت حولها بحثاً عن عين ماء، أو علَّها ترى شجرة، أو ترى أُناساً معهم ماء، فكان ولا بد أن تخرج من الوادي إلى ربوة عالية ليتكشف لها المكان.

فذهبت على ربوة الصفا فنظرت فلم تجد لا شجرة ولا رأت أحداً، ولا رأت طيراً طائراً لتهتدي بطريقه إلى الماء، ثم رجعت فذهبت إلى الربوة الأخرى، ربوة المروة فلم تجد شيئاً، ثم قالت: أرجع مرة أخرى لعلي أجد ركباً سائراً، بين الصفا والمروة لطلب الماء، فلم تجد شيئاً.

إذن.. هي استنفدت كل أسبابها، امرأة تمشي هذه الأشواط السبعة، وتصعد ربوة الصفا وربوة المروة، هذا غاية ما يمكن أن يكون لها من قوة، فتكون قد عملت كل جهدها وطاقتها.

وبعد ذلك ذهبت إلى وليدها ولم تأت له بشيء، فوليدها التي تريد هي إحضار الماء له، ضرب الأرض برجله فخرج الماء!!

إذا كنت يا صاحبة الأسباب سعيت وذهبت وجئت وصعدت الجبال، ولم تحصلي على شيء، والوليد الذي ليس له حول ولا قوة يحرك رجله كما يلعب الرضع فينبع الماء من تحت قدميه!!

إذن.. قول السيدة هاجر عليها السلام: «إذن لن يضيعنا اللَّه» قضية إيمانية عقدية صدقت فيها، فلو أنها وجدت الماء عند الصفا أو وجدت الماء في إطلالتها من المروة، لما اكتملت القضية.

لهذا نحن نكرر هذا المشهد استشعاراً بما يجب أن يكون عليه المؤمن إيماناً باللَّه الذي خلق الأسباب، فإن استنفدت الأسباب ولم يشأ اللَّه، فلا تيأس لأن المسبب سبحانه موجود اسأله فهو وحده القادر على أن يعطي بدون أسباب.

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ والمضطر

---

(١) سبق تخريجه.

هو الذي استنفد كل الأسباب، وليس له إلا المسبب سبحانه، فيتجه إليه ويقول: يا رب الأسباب التي أعطيتها لي عملت بها كلها ولم تأت، فأنت سبحانك القادر على أن تعطيني بلا سبب.

وهذا هو الرصيد الذي يأوي إليه المؤمن حينما تعز عليه الأسباب. وهذا هو الذي يجعل المؤمن يصبر؛ لأنه آوى إلى ركن شديد.

ولذلك الكافر عندما تضيق به الأسباب لا يجد بداً إلا أن ينتحر؛ لماذا ينتحر مع أن الحياة غالية جداً؟ مع أن الكافر ليس له إلا الحياة الدنيا لأنه ليس مؤمناً بالآخرة ولا بالحساب! فما الذي يهون عليه أن يترك الحياة وليس له غيرها؟

إذن.. لا بد أن تكون هناك أشياء فوق أسبابه. وهذا فرق المؤمن من الكافر، الكافر حين تضيق به أسبابه ييأس، لكن المؤمن لا ييأس من روح اللَّه، بل يقول: الأسباب لم تأت ولكن المسبب سبحانه موجود.

إذن.. ملحظية هذا السعي، كل واحد يذهب ليستكمل أركان دينه بالركن الأخير الذي هو الحج لا بد أن يعود بهذه القضية، وهو يؤديها إحياء لنسك السيدة هاجر أم إسماعيل عليهما السلام، وليس فقط إحياء لنسك أم إسماعيل، بل ترتيب لقضية الأسباب والمسببات حتى يستقبل المؤمن كل أحداث الحياة بقوة، ولا ييأس ويقول: الأسباب صحيح لم تأت لي بما أطلبه وأرجوه، لكن رب الأسباب وخالقها موجود.

وأيضاً فالحق سبحانه وتعالى يريد أن لا يكلنا إلى تواكل، فمن الناس من يقول ما دام اللَّه هو الذي يفعل كل شيء فلم العمل منا؟ فنقول: لا، لا تترك يد اللَّه ممدودة لك بالأسباب وتطلب منه مباشرة، عليك قبل ذلك أن تأخذ بالأسباب، فإن استنفدت الأسباب فاذهب إلى المسبب، أما أن تقول يا رب وأنت لا تأخذ بالأسباب فهذا مخالف لسنة اللَّه في قضاء حوائج الناس؛ فلذلك المتواكلون هم الذين يصنعون ذلك.

إذن.. قضية الإيمان في ذاتها أن الإنسان في هذا الوجود بين أمرين: بين أسباب لا بد أن يأخذ بها، وبين مسبب يجب أن لا ييأس منه أبداً، فالجوارح تعمل ولكن القلوب تتوكل.

obeikandl.com